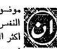
الشخصية والموقف

بقلم عدنان بن ذريل

* * *



ان موضوع الشخصية من أدق موضوعات علم النفس العام، وان السبيل الى تحديده من اكثر السبل وعورة(١).. وذلك ان (الشخصية) شيء من الذات، والحياة، والطبيعة، وتدرك بجماع العوامل الجسمية، والاجتماعية، والفكرية، والنفسية..

انها المجموعة المتكاملة من الصفات الخلقية، والفكرية التي يتصف بها، انسان ما، وتميزه عن غيره في سلوكه، وطباعه، وتفكيره... او هي الصورة المنظمة المتكاملة لسلوكه، واخلاقه، في تلاؤمه مع الحياة..

ان (الشخصية) هي شعور الشخص بهويته، اي بأنه هو هو، رغم التغيرات التي تطرأ عليه في الحياة، وهي وحدة تتحقق في تنظيم الشخص لعلاقاته بالعالم الخارجي، والآخرين، عبر العمليات النفسية المتعاقبة في تاريخ هذا الشخص..

وسبق ان درست الشخصية، والصراع المأساوي(٢)، في طلائع المسرح الشعري العربي، احمد شوقي، وعزيز اباظه، وعدنان مردم بك، حيث اعتمدت آراء استاذنا المرحوم (يوسف مراد)، ونظرتها التكاملية، والتي كنت اقارنها بآراء (ناخر عاقل)، وهي سلوكية..

وعندما درست الرواية العربية السورية(٣) عدت فاعتمدت التكاملية في علم النفس العام، مع بعض اجتهادات في التحليل النفسي، او علم نفس الموقف، وخاصة تصنيف كارل يونج لنماذج الشخصية، النموذج المنبسط، والنموذج المنطوي، ولونياتهما بالنسبة لوظائف الفكر، والاحساس، والحدس، والعاطفة..

ولا انسى في هذه المناسبة ان اسجل ما كان للصديق المرحوم (سامي الدروبي) من خدمات جليلة لعلم النفس، اذ الف فيه، وترجم، وساهم في تأسيس مختبر له في جامعة دمشق، وكان موضوع الشخصية، والطباع موضوعا اثيرا لديه، وتجد في ما كتبه الصديق عبد الكريم زهور عدي تعريفا بها(٤)..

الشخصية الموضوعية

يرى — كورت ليفن — (١٨٩١ — ١٩٤٧) ان عمل العالم النفسي، بالنسبة لبحث الشخصية الانسانية، هو مثل عمل الروائي في تسوية رواياته، ورسم ملامح ابطالها..

ان كلا منهما يقدم لنا صورة حية عن سلوك الانسان في حوادث معينة، او لنقل ازاء حوادث معينة في بيئات معينة، ولكن بينما يقدم الروائي هذه الصورة اعتمادا على الوسائل الادبية، يصطنع العالم النفسي المناهج العلمية، والرياضية لذلك..

يرسم الروائي اشخاصه في مواقف متنوعة، تتوحد فيما بينها ازاء موقف كلي رئيسي يخص عادة البطل الرئيسي، والذي يصبغه الروائي في مواقف حياتية يجلل عواملها، ويكشف عن دخائلها، والقوى المؤثرة فيها.. وكذلك العالم النفسي، فهو يعالج مجال الحياة، ومواقف الاشخاص فيه(٥)..

وفي نظر — كورت ليفن — ان على العالم النفسي ان يكون موضوعيا، كي يستطيع تحديد معنى الشخصية.. و (الموضوعية) في نظره هي في تجرده عن الافكار السابقة، وتخليه عن ميوله وعواطفه، من اجل ان يضع نفسه موضع الآخرين، تماما كما الفنانون، ورواد الادب، ومنهم الروائيون يضعون انفسهم موضع الآخرين، في رصد سلوكهم، او رسم طباعهم..

والتفرقة المنهجية اذن هي بين الموقف كما يبدو للمجرب، والموقف كما يبدو في نظر الشخص الذي نجري عليه التجربة، والموضوعية في ذلك هي تصوير الموقف كما في نظر الشخص الذي ندرسه.. اي كما قلنا في ان نضع انفسنا موضع الشخص الذي ندرسه..

هذا الامر يترتب عليه الفارق الذي بين الموقف من الوجهة النفسية، والموقف من الوجهة الاجتماعية.. لان العوامل الاجتماعية من بيئية، ووراثية، وما شابهها عوامل حاجزية، وتظل لها اسبقية عامة، بفعل انها من

---

(١) — هذه الدراسة كتبتها برا بوعدي للاديب الغراء، راجع دراستي لازاهير تشرين المدماة، الاديب، فبراير ١٩٧٨.

(٢) — الشخصية والصراع المأساوي، لعدنان بن ذريل، دمشق ١٩٧٢، حيث الفصول المستفيضة.

(٣) — الرواية العربية السورية، للمؤلف المذكور، دمشق ١٩٧٣.

(٤) — المعرفة، الاعداد ١٧٣ و ١٧٤ و ١٧٥، تموز وآب وايلول ١٩٧٦.

(٥) — هذه الامثلة من مقالة كورت ليفن عن (السلوك والنمو كوظيفة للموقف الكلي)، وقد اعتمدناها على امالي استاذنا المرحوم (يوسف مراد) في الجامعة المصرية.

طبيعتها تحدد المجال النفسي ، الذي تحاصر تجربته ، وايضا تحيط بها ..

تكوين الشخصية

وقد اختلف الدارسون في تكوين الشخصية ، هل هو تكوين طبيعي ، فطري ؟ . بحيث تولد الشخصية مع ولادة الشخص ؟. ام هو مكتسب يظل يخضع للعوامل الخارجية ، التي للبيئة ، والظروف ؟ ! .

ان الشخص في واقع الحياة دائم التغير ، والنمو ، دائم الحركة ، والتقدم... والصعوبة في بحث الشخصية ، او تحديد معناها ، ان هذا الجانب الحركي الذي لتآزر تدراته ، وعملياته النفسية ، ومواقفه ، وسلوكه ، يتكشف هو نفسه عن اشكال من الادراك ، والبراعة ، وايضا الصراعات ، والازمات .. بحيث أن ما نسميه بشخصية ؛ هو بالاحرى هذا (المظهر الفعلي) للوحدة الكلية للانسان ، او هو ، كما يقول (كورت ليفن) — (الالق النفسي) الذي يتبدى في مفرق الطرق حيث سلسلة المواقف المتنازعة ..

كانت النظرة القديمة تعتبر السلوك ارتباطا بين منبه ، واحساس ، و (ودورث) اعتبر الجسم وسيطا يجب ان يحسب حسابه في معادلة السلوك ، و (تولمان) ادخل في تفسير السلوك الدوافع والاهداف ، اي الاستعدادات الوراثية ، والمكتسبة عند الشخص(٦) ..

ومن هنا اعتبار السلوك مظهرا للشخصية ، في موقف معين . .وانه لا بد في دراسته من مراعاة كل من الشخصية ، والموقف .. لان الموقف يخص الشخص ، ومن الضروري تفسير سلوك معين بالطريقة التي يواجه بها الشخص موقفا معينا ..

كان علم نفس الصيغة وقتها يحاول تفسير الادراك من اساس فعالية حركية راهنة ، اي تقوم بعملها في نفس وقت حصول المدركات .. فوسع (كورت ليفن) هذه النظرة حتى جعلها تشمل ميدان الرغبة ، والوجدان عامة ، وقال بمبدأ العيانية ، اي ان الوقائع القائمة هي وحدها التي تستطيع ان تؤثر في السلوك(٧) ..

ولذلك اعطى الاهمية في البحث النفسي للعلاقات الحركية التي بين الكائن الحي ، ومجاله الراهن .. واعتبرها من طبيعة عضوية ، وتقوم مقام تلك الآليات الغائية التي لعلم النفس الارتباطي ، أو البنائي ، او سواها ..

وقد اعتبر الصيغيون ، وخاصة (فرتهايمر) العلاقة السلوكية ، ليس بين منبه ، واحساس ، وانما بين ما يعتري المجال في واقعه الراهن ، وبين الموقف ، واستجاباته ..

وفي نظر (فرتهايمر) ان الموقف ، واستجابة الشخص شرطان اساسيان للمجال الكلي ، وجميع التجارب التي اجريت بعد عام ١٩٢٤ هي من وحي هذا التوجيه ، سواء في دراسة الحركة ، او الاشكال ، او الالوان ، او العلاقات النفسية والاجتماعية(٨) ..

المجال عند كورت ليفن

اهتم كورت ليفن بدراسة المجال النفسي ، وصلته بالمجال الحيوي او الحياة ، وصار يحدده من منطلق تكاملي حركي ، يوفق بين السلوكية ، وعلم الصيغة ، بين السلوك وصيغته ..

لقد اعتبر (السلوك) نشاطا داخل مجال ، بحيث تكون العلاقة السلوكية مظهرا لوظيفة الشخص وبيئته ، وليس ثمرة التفاعل بين الشخص ، وبيئته ، كما يقول السلوكيون ..

ان السلوك جزء من المجال ، لانه نتيجة تركيبه في زمن معين ، وهو ايضا عامل من عوامل تغييره .. و (الانا) في ذلك جزء وظيفي داخل مجال اوسع ، ولم تكن في البدء ؛ وانما تكونت مع نمو الشخصية ..

المجال وسط ، او حقل ، ولكن يجب تمثله رياضيا(٩). اي توبولوجيا كمكان رياضي للفعالية ، والسلوك معا . هو محل التنافر والتجاذب بين قوى النفس في ظهورها ، وانحسارها ..

ان المجال لا يتجزأ في الواقع ، وان كنا نحلله في الدراسة التوبولوجية الى ما يتضمنه من فيزيائي ، وجغرافي ، وسلوكي ، واجتماعي ، ونفسي في موقف معين ..

وذلك ان (كورت ليفن) لم يقتنع بالعلاقة التي لتتابع المؤثرات والاستجابات ، وانما اخذ يحلل السلوك في كلية ارتباطاته ، سائلا عن الحوادث السابقة مباشرة عليه ، او الحوادث المعاصرة له ..

وقد وجد ان هذه الحوادث السابقة لمباشرته : او المحاصرة له واقعة داخل الشخص ، وانها تؤلف مجالا

---

(٦) — انظر المعرفة ، العدد ١٧٢ ، السابق الذكر .

(٧) — علم النفس في مائة عام ، لفلوجيل ، ترجمة لطفي فهيم ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٧٤ وما بعدها .

(٨) — من أمالي استاذنا المرحوم يوسف مراد ، في الجامعة المصرية .

(٩) — هناك نوعان من القياس في الهندسة ، ففي هندسة الابعاد تقاس الابعاد بالنسبة لوحدة ، او قاعدة ، وفي الهندسة التوبولوجية تقاس بالنسب بين التغيرات .. والمكان توبولوجيا يقصد المكان كعلاقة رياضية ، وليس كمضامين من ارضية ، او مركز ، او محيط .

حيويا ، هو الحياة .. ولذلك اعتبر المجال الحيوي كيفية لوجود الشخص في وقت معين(١٠) ..

ان المجال الحيوي ، في نظر كورت ليفن ، هو تلك العمليات المادية ، والاجتماعية التي تؤثر في السلوك .. بحيث ان ما يفعله الشخص يتوقف على مجاله الحيوي الموقت ، اي الحوادث المركزية التي له ، كشخصية لها تاريخية ما ..

واذا كان هناك في داخل الشخص حوادث لا يتوقف عليها السلوك ، فيمكن اعتبارها في حالة سكونية ، او لاشعورية ، حتى تظهر آثارها في المجال الحيوي الراهن ..

ان كورت ليفن جعل استنتاجاته تقوم على السلوك الذي يدور في موقف معين ؛ وفي نظره ان ما هو حقيقي هو ما له اثر .. وهذا منهجيا يعني انه بعد حدوث السلوك، يمكن الاستدلال استرجاعيا على طبيعة المجال الحيوي ..

وقائع الموقف الراهن

واما ــ المجال النفسي ــ فان كورت ليفن يقصد منه ما له وجود نفسي بالنسبة للشخص في وقت معين ، اي الاشياء الموجودة في ميدان نشاطه ، وتصرفاته ، ولها اثر على سلوكه ، وافعاله ..

والسؤال يصير : هل يعتبر الشعور الفردي محكا لما يوجد لدى الشخص من عوامل مؤثرة ؟ . وفي الحقيقة لا بد ان نحسب دائما حساب الاشياء الطبيعية ، والاجتماعية ، وذلك لان المجال الطبيعي ، والاجتماعي له وجود نفسي ، طالما ان الشخص يشعر به ، ويتحمل وطأته .. ناهيك بأن العديد من الاشياء المادية ، او الروابط الاجتماعية ذات طابع حاجزي ، يحد الفعالية الانسانية ، ونشاطها ..

واهمية الوقائع في المجال النفسي تصبح لما لها تأثير في الموقف الراهن ، والطريقة التي تؤثر(١١) وذلك ان نفس البيئة الطبيعية ، و الاجتماعية تختلف بالنسبة للشخص من موقف الى آخر ، كالفرق الذي بين حاله جوعان ، او شبعان ، او حاله سعيدا ، او حزينا .. او الفرق الذي بين روابط القوانين التي تخضع لها افراد امة ، وبين شعور الافراد بها ، او مدى تأثيرها عليهم .. هذه العلاقة ذات قيمة كبرى ، ويتوقف عليها تعديل الوقائع النفسية ، والاجتماعية نفسها ..

وفي مصطلح كورت ليفن ــ القوة النفسية ــ هي الميل الى عمل في اتجاه ما .. فهي عنصر موجه ، وفي الوقت نفسه ذو اتجاه ، وتأخذ اشكالا مختلفة حسب مجالها الحيوي ، والنفسي .. ومن حيث ان المجال الحيوي هو الحياة ، او هو نظام المنبهات ، او لنقل ايضا هو الارضية التي تنبعث عليها الاستجابات وانماط السلوك . والمظاهر النفسية المختلفة . فان (المجال النفسي) يصبح هو الموقف الكلي في وقت معين .. وان كورت ليفن يربطه بالمجال الراهن ، بحيث يجب ان تسقط الميول ، والرغبات ، والآمال ، والارادات في المجال الراهن ..

وحقا ان علماء النفس القائلين بالمجال ، والعلاقات المواقفية يقللون من اهمية الابعاد الزمانية ، او يكادون يهملون الماضي ، واثره ، ولكن كورت ليفن يستوجب ان يسقط الماضي ، والحاضر ، والمستقبل في المجال الراهن ، بفعل انها مجموعة وقائع مرتبطة بعضها ببعض ، تؤثر في السلوك ، وايضا تفسره كما راينا ، وهذا معناه ان كورت ليفن يعترف باللاشعور ، واثره في السلوك ، والشخصية على السواء ..

الموقف وامكانياته

نستطيع ان نفهم اي موقف ، بواسطة المجال النفسي للحياة العامة ، اي تاريخ حياة الفرد .. ان مجال الحياة هو بمثابة ارضية بالنسبة للموقف الراهن ، والذي يمكن دراسته اذا نحن راعينا الاعتبارات المتعلقة بالوقائع الطبيعية ، او الاجتماعية ، او الفكرية ، وميزناها عما يشتبه بها ، او تقترن به ، مما سبق شرحه ..

ان علم النفس الحركي ، الذي عمل له كورت ليفن من وجهة تكاملية ، صيغية ، ومواقفية ، هو العلم الذي يبحث في طرق السلوك التي يحتمل ان تحدث ، او لا تحدث ، بناء على موقف معين .. هذه النظرة الحركية تعتبر (الموقف) عبارة عن مجموعة من العوامل المؤثرة في الشخص في وقت معين ..

ولذلك ينبغي ان ينظر الى (الموقف) على انه مجموعة امكانيات ، لما يحتمل حدوثه ، او عدم حدوثه من سلوك ، وتصرفات ، بناء على وقائع المجال الراهن .. و (الامكانية) في نظر كورت ليفن ، هي الاختيار في المواقف المتداخلة ، كما هي الحال في صراع القوى النفسية ، او عند انتماء الشخص الى جماعتين ، وهكذا دواليك ..

(الموقف) هو وجود فعلي ، يترجمه وجود المؤثر ، ذلك انه ليس كل واقعة مادية ، او معنوية ذات اثر في المجال النفسي الراهن .. ان الفرغة ، والبستان ، والنهر ،

---

(١٠) ــ راجع ميادين علم النفس ، دراسات باشراف جيلفورد ، وترجم الى العربية باشراف يوسف مراد ، المجلد الثاني ، ص ٩٩٩ ، وما بعدها .

(١١) ــ ان انطباعات الشكل واللون والحجم تختلف من انسان الى اخر ، وعند الشخص الواحد ، بحسب الظروف ، وكذلك القدرات النفسية ، ومستوى الذكاء تختلف في جو من التعاطف ، والاطمئنان عنها في جو من الارهاب ، والتوتر .

آخر قصيدة

هذه آخر قصيدة نظمها فقيد التربية والشعر نسيم نصر ،
من وحي جراحة طبية مرت باربعة ادوار

مع الغصن ، في آذار ، حاولت أورق   ومن فوحة الانسام نديان أنشق
وفي جدة الدنيا وبعث حياتها   رأيت زوايا العمر بالنور تشرق
فروحي ، وان عز الغنى بسرابها   لها من يناع المرء روض منمق
كاني على مر الزمان ممتع   بنشوة ... للصفا تترقرق
تراودني للرشف منها خصاصة   من الدهر ان ناء البقا تتالق
فعندي ، على السبعين ، مرة خاطر   لها في حنايا الصدر برج محلق
أعود اليها في الملمات ، مثلما   يعود شذا نيسان بالطيب يعبق
يمر فيسري في الحشاشة منعشا   يرد الى قلبي هوى كان يخفق
فترتاد ذاتي في معارج ضيمها   نوازع تأتي بالعزاء وترفق
عزائي بدائي انني متحمل   تروي قواه عزمة تتدفق
ترى مبضع الجراح آلة رحمة   وفي حنوة التمريض بالسر تنطق
وفي وجمة الآسي حرارة مؤمن   لها في حنايا النفس افق ومشرق
فكان اذا ما عادني ذو مودة   رأيت بلقياه انعطافا يوثق
فما سرحة الدنيا سوى مسرح الرؤى   عليه مطاوي المرء بالبعث تألق

نسيم نصر

والوضع العائلي ، والوظيفة ، والتجمع وغيرها ليست كلها ذات اثر واحد ، في اللحظة الراهنة ..

وكما يمكن فهم الموقف بواسطة المجال الحيوي ، والنفسي ، اللذين للشخص .. فان الآثار الآنية ، في اللحظات الراهنة هي ما يجب دراسته في بحث الشخصية ، ونموها(١٢) ..

الشخصية عند ليفن

ان (الموقف الكلي) ، كمجال راهن ، لم يعد موقفا شعوريا كله ، وانما صار يسمح بافتكار عوامل لا شعورية ، تسربت الى الشخصية ، وتركت اثرها فيها ، يظهرها السلوك ..

ويجب اذن دراسة المواقف الكلية ، عن طريق تحليل الآثار الآنية في تجارب الاشخاص ، في الحياة اليومية .. ان الشعور ليس المحك الوحيد للمجال النفسي ، ولكن ثمة عوامل اخرى لا شعورية تظل تتحكم بالمجالين الحيوي ، والنفسي ، وتعطي السلوك اتجاهاته ، والشخصية خصائصها ..

لقد جعل كورت ليفن دراسة شخص معين دراسة علاقات توبولوجية ، بين مجالين ، او اكثر .. وقد اظهر بذلك علاقات الاجزاء بالكل ، وعلاقات العوامل ، والمؤثرات بالموقف الكلي الراهن ، مع توضيح التغيرات كافة ..

ان (الشخصية) في نظر كورت ليفن ، هي نظام طبقات ، لها تركيب متميز المناطق ، تظهر فيها التغيرات .. هذه المناطق (كيفيات) ، ولها حدود تميزها ، ويمكن دراستها ابتداء من مظاهر السلوك في نظام المنبهات ، والذي يظل مرتبطا بالشخص ، وتاريخه ..

ان (الأنا) غير موجودة في البداية ، كما قلنا ، وذلك لان الاجزاء الاولية غير موجودة ، وانما الموجود صيغ حركية .. بخلاف راي السلوكيين ، والارتباطيين الذين يرون ان الاجزاء الاولية منفصلة ، فيقررون خبرات اولية من احساسات ، وردود فعل ، ثم يصلون الى القدرات النفسية .. ولكن عندما تتكون الانا تصبح جزءا وظيفيا داخل الموقف الكلي ، او المجال .. والى لقاء ..

---

(١٢) ـ درس كورت ليفن حجم الواقع والخيال عند الاشخاص ، منذ طفولتهم ، خاصة في المخاوف من الحاضر ، او المستقبل ، كما درس شعور الاطفال بذاتهم ، وبالعالم ، في الشعور بالزمان في اللعب وتنظيمه ، مع مقارنتهم بالفنانين ، واحوالهم .

(١٢) ـ الامالي السابقة الذكر ، وغيرها ، ونامل ان نتابع البحث في الاعداد القادمة ، وشكرا .

دمشق   عدنان بن ذريل

يوميات تبحث عن هوية

سلافة العامري

اما زلت تذكر اول يوم لقيتك فيه
وذاك الشعور .. وما قد عرانا
وكيف تكشف ما في الصدور
وردنا نصيخ لصوت المطر
وبيروت كانت على عهدها بين حين وآخر
تشد الرحال .. الى موعد مستحيل
تودع فيه انسياب العطور
ودفء القصور وعبء الضجر
ومرت شهور الشتاء ومر الربيع
وبيروت تبحر نحو الرماد
على زورق من حديد ونار
ومجذافها بين جزر ومد
ودمع العيون وعصف الرصاص وخفق الشرر
وجاء الخريف .. وأيلول يرمي اصفرار الوشاح
على كل قلب .. يلم الوقود
يعبىء كل النفوس
يعبد للموت الف طريق
واحتال حتى أراك
أجوس جميع الحواجز .. احلم بالموعد المنتظر

*

وتوقفني عشرات الحواجز :
من أنت .. كيف وصلت ؟
وأي سبيل الينا سلكت ؟!
واحتار فيما اجيب .. أنا من جميع البيوت
وخلف جميع الحواجز أمضي
وللموت صوت .. وللحقد صوت
لكل القضايا يجلجل صوت
وأترك كل القضايا
وأحمل وزر الخطايا
وأسعى مع الحب في كل درب
به .. قد رسمت ملامح وجهي
به .. قد رفعت دعائم قصري
به .. قد نحت حجارة كوخي
به .. ساواجه كل سلاح
وأحمل جرحه بين الحنايا
أعمد بالجرح كل البشر
وعاد الشتاء وعاد يخيم صمت المساء
ولا زلت أركض بين الحواجز يسكنني حلم باللقاء
اذا يا صديقي قضيت قبيل الوصول
وكان سقوطي على أي حاجز
فاني أموت لأجل قضيه
تظل مدى الدهر فوق القضايا
وفوق مرامي جميع البرايا
بها يبلغون جماع الوطن

*

دمشـــق



بقلم الدكتور محمد رجب البيومي
الاستاذ بكلية اللغة العربية بالقاهرة

* * *

نقلت بعد التخرج بشهور قليلة الى مدرسة ثانوية نائية ، وكنا — معشر المدرسين — جميعا حديثي العهد بالوظيفة ، لا نعرف شيئا عن الادارة والاداريين ، وكان ناظر المدرسة ينتظر الاحالة للمعاش بعد قليل ، فلم يكن يكترث بأعبائه ، بل كان يأتي اسبوعا ويتمارض اسبوعا آخر ، فاذا حضر كان معنا كأحدنا ، يجلس في حجرة المدرسين ، ويشترك معنا في طعام الغذاء ، ويقضي السهرات في نادي المدرسة يحادث المدرس وولي الامر والطالب والفراش ، وقد يجلس احدنا في مجلسه بحجرة النظارة فلا نشعر الا ان الامر طبيعي بين أخ كبير واخوة يسيرون في طريقه ، ثم انتهى العام واحيل الرجل الى الراحة الهادئة ، وجاء في مطلع العام الجديد ناظر جديد .

ذهبنا لتهنئة الرجل في مكتبه اذ كان مرقى من المدارس الاعدادية للمدرسة الثانوية ، وجلسنا نتحدث ، ولكن السيد الناظر قد تجهم وجهه واربد ، واخذ يرد التحية بامتعاض كريه ، حتى خيل الى المجتمعين انهم يعزون في مصيبة ، ولا يهنئون بترقية ، وكان احسنهم ظنا يتوهم ان الرجل يعاني مأساة خاصة لا يستطيع الخلاص منها ، ثم رأينا ان ننصرف عن مجلسه ونحن حائرون .

وفي المساء ذهبنا كالمعتاد الى نادي المدرسة ، فرأينا وكيلها — وهو صديق ودود — يتصدر المجلس ليعلن ان السيد الناظر اخبره عن استيائه الشديد لمظهر المدرسين ، فقد جلسوا في حجرته دون استئذان ، وقد تحدث كل منهم الى رفيقه كأنه ليس في حجرة مسؤول ، كما دارت النكات التي توحي بارتفاع الكلفة بين الرئيس والمرؤوس ، وهذا ما يفسد شؤون الدراسة ان استمر على وجهه المتسامح ، فلا بد ان تراعى مكانة الحجرة الاولى في المدرسة ، ولا بد ان يجتمع المدرسون في غيرها ، ولهم حجرتهم الخاصة ، وابتسم الوكيل وهو يقول : لقد كلفني ان ابلغكم الامر ، وأنا معكم ، وسأنقل مكتبي لحجرة المدرسين اذا قبلتم !

عرفنا كل شيء عن ازمة الرجل النفسية ، فقد هاله ان يكون صديقا لا رئيسا ! ولا تسل عما انهمر من التعليقات البريئة والخبيثة معا ! وقد تم الاتفاق على مقاطعة الرجل ومجاملاته ، وان يكون الاتصال مع الوكيل وحده ، ولكن الرجل مع ذلك قد وضع فوق النار واخذ يستعد للغليان عن قريب .

مضى اسبوعان ، وحان اول الثالث ، وهو موعد ابتداء الدراسة اذ كنا في ايام التأهب والاستعداد فرأينا ساعي المكتب ، وهو فراش اختاره الناظر ليقف امام حجرته دون عمل ، يمر علينا بمنشور يطلب اجتماع المدرسين للاستماع الى مطالب السيد الناظر ، ويحدد الزمان والمكان في اقتضاب عاجل ، واذن فلا بد من اللقاء .

تقابلنا في تطلع لنتواصي بالكياسة والهدوء ، وطبيعي ان تختلف الامزجة فيكون منا المسالم والمشاغب ، والمتسرع والمتحفظ ، الا ان احدنا وهو الاستاذ رشاد كان ابن المدينة ولاسرته مكان القيادة ، وله حدة وشجاعة ، وفي تاريخه وقفات قاسية مع الرؤساء ، ولن يصبر على ضيم ، وقد بدا من ملامحه انه متأزم غير مستريح .

حان الموعد ، وبدا السيد الناظر متجهما دون ما داع ! فأعلن انه قضى اسبوعين مليئين بالصعاب حتى ما كان يفرغ دقيقة واحدة في النهار ، كان يعد الجدول ، ويوزع النشاط ، ويقف على تنظيم المقاعد في الفصول ووضع الكشوف على الجدران ، ويختار المدرسين للسنوات وفق اعتبارات دقيقة ترجع الى التقارير وزمان التخرج ونتائج الامتحان ! وانه لم يكن يلعب في اعتكافه ، ولولاه لهجم العام الدراسي دون استعداد .

وكان من المنتظر ان تمر المقدمة دون تعقيب ، فليس فيها ما يغضب ، ولكن زميلنا الاستاذ رشاد قد قال في اعتداد :

— يا حضرة الناظر ، هذه مسائل عادية كنا نقوم بها في العام الماضي بمنتهى السهولة ! لان سيادة الناظر السابق لم يكن يحضر قبل ابتداء الدراسة ، ولم نشعر بصعوبة ما ، في عمل آلي يعرفه كل مدرس دون مباهاة !

فتطلع الناظر في غضب وسأل محتدا :

أواثق انت مما تقول ؟ فأجاب الاستاذ رشاد في تهكم :

لو ان سيادتك تأخرت اسبوعين وجئت الآن لوجدت الامر على ما يرام !

فاحمر وجه الناظر ، وسأل في غيظ : لماذا تقاطعني دون أن تستأذن في الكلام ؟

فصاح الاستاذ رشاد : هذا اجتماع يا استاذ ، ولم نحضر لنسمع خطبة دون نقاش وسأناقشك في كل اتجاه اذا بدا ما يستحق النقاش .

قام الناظر غاضبا ، وخرج المدرسون مسرورين ! وقد حاول الوكيل ان يتوسط كي يتم الاجتماع ، ولكنها محاولة ظاهرية باءت بالاخفاق .

ابتدا العام الدراسي ، ولم يخرج الناظر عن عزلته فليس له اتصال بغير الوكيل والسكرتير وحارسه المنتصب امام الباب ، وكان الوكيل داهية حصيفا ، فافهم صاحبه ان الاستاذ رشاد ذو تاريخ سيىء مع الرؤساء وقد اعتدى في قسوة على بعض المسؤولين ، واسرته كبيرة محترمة تحميه في كل معركة ، ولها اساليب منها الظاهر والخفي ، واهون شيء لديها ان تسلط مجرما يعتدي بالليل على مسؤول دون ان يجد شاهدا يشهد ، ثم تقيد الحادثة ضد مجهول ! وكان الوكيل في اعماقه غير مستريح لعنجهية الناظر ، فبالغ واغرق حتى ارهق الرجل وشغل باله فاخذ يفكر ويدبر ، حتى اهتدى الى ان يسالم الاستاذ رشاد وحده ، فارسل يستدعيه .

فوجيء الاستاذ بالدعوة فتقدم في وثوق يعهد فيه ، واعتداد لا يفارقه عند الازمات ولم يكد يرى الناظر حتى شاهد ترحيبا وابتساما وملاطفة ، ثم رآه يغادر مكتب الرئاسة ليجلس جواره على المقعد ثم يقول له في استرضاء :

يا رشاد انت من اسرة كريمة ، والمدرسة مدرستكم ، مدرسة اسرتك واقربائك واخوانك فهي في حاجة الى معونتك القوية ونشاطك الكبير .

فقال رشاد في ادب : وهل تاخرت يا حضرة الناظر ؟

فتعجل الرجل يقول : لن يستقيم الامر لي الا اذا كنت معي ، المدرسون مهملون ولا يؤدون الواجب في الفصول كما احب ، وكلنا نحب مصلحة التلاميذ ! وساختارك مراقبا للدراسة ، تتفرغ من الحصص المدرسية لترى انتظام الطلاب ، وتراقب سير المدرسين ، وتكون معي امام كل متباطيء .

فقال رشاد : ولكني مدرس بالمدرسة واعرف ان اخواني المدرسين يؤدون واجبهم كاملا دون تقصير ، وهم مثال الكفاءة والاجتهاد .

فقال الناظر : اريد ان تكون معي لا معهم يا اخي ، انت من الآن مسؤول !

فرد رشاد في حدة :

انا معهم يا حضرة الناظر لانك سيىء الظن ، ولن احارب زميلا : فتاريخي يشهد انني احارب الرؤساء المنحرفين .

فاطرق الرئيس متخاذلا ! وانصرف الاستاذ .

لم يعد الناظر ذا شان بالمدرسة ، فقد ترك الاداريات للوكيل ، واحتجب في مكتبه الذي لا يزوره غير مفتش يشرب القهوة ، او ولي امر يرى الناظر لذة في استدعائه لسؤاله عن غياب ولده يوما او يومين ، وتعرضه للفصل الحاسم بأمر الناظر نفسه !! وحارس المكتب منتصب طول اليوم يفتح الباب ثم يوصده لغير ضرورة . وقد راى الرجل ان يخرج من عزلته فاختار ناظر المدرسة التجارية الثانوية بالمدينة لصداقته واخذا يتزاوران اثناء العمل اليومي ، ثم يقضيان اكثر الليل في الزيارات المتبادلة ، وقد يخرجان بعد الاصيل لنزهة في شوارع المدينة ، او لقاء على مستوى رئاسي مع المسؤولين ! وقد ارتاح الرجل لصداقة زميله ، فكلاهما ناظر رئيس ، وكلاهما من كبار رجال التربية والتعليم بالاقليم !

ومع هذا التحفظ المترفع فقد شاهدنا ذات يوم طالبا ازهريا ضريرا يقوده زميله يتوجهان لمكتب السيد الناظر ، فيتقابلان بالترحيب والبشاشة ويسرع الحاجب لاحضار الشاي ، ويوصد الباب قرابة ساعتين ، ثم يخرج الطالبان في مظهر احترام لافت ، وقد صافحهما السيد الناظر على باب الحجرة في ود واضح ! ثم نراه على غير المعتاد يحضر الى حجرة المدرسين فنقوم للقائه مرحبين ، وياخذ مكانه في شموخ ثم يتفرس الوجوه ليقول في ابتسام :

— ما شاء الله ! هذا الطالب الازهري الضرير سيكون مثل طه حسين ! لقد وجه الي اسئلة ذكية جدا اجبت عليها وكأني امام صحفي كبير .

فقال احدنا في ادب :

ولماذا يسال وما شأنه ؟

فرد الناظر على الفور ، انه مندوب المعهد الديني بالمدينة ، وهو المشرف على تحرير صحيفة المعهد وقد راى ان ياخذ مني حديثا صحفيا فرحبت بطلبه ، ووجه الي اسئلة كثيرة واستغرق الحديث ساعتين ، وكان يسال وكنت اجيب ، اما رفيقه المبصر فكان آلة كاتبة فقط ، يدون السؤال والجواب !

قلت — ولاول مرة اسال الرجل — وفيم دار السؤال والجواب ؟

فقال الناظر الكبير : سالني عن تاريخ حياتي ، فحدثته بكل صدق عن امتيازي بالدراسة الابتدائية اذ كنت من الاوائل العشرة ثم حافظت على المستوى في الشهادة الثانوية ، ونجحت بامتياز في الليسانس وكدت ابعث الى انجلترا : لولا ان بعض المحاسيب قد اخذ مكاني دون حق ، اما عملي في وزارة التربية فينطق به الملف ، كانت التقارير ممتازة وكان زملائي يأخذون كراسة الاعداد لينقلوا ما كتبت ، وكان التلاميذ يتقاتلون على فصولي فاولياء الامور يحرجون النظار بطلباتهم من اجلي ! وكنت بعد ذلك ناظرا للمدرسة الاعدادية فقمت بمشروعات حية ، تحدثت عنها بوضوح لمندوب المجلة ! وقد حرص على ان يأخذ صورتي لتكون في مقدمة الحديث !

ثم سكت الرجل قليلا ليقول :

معا سنمضي

تألقـي ، تألقـي	علـى جبـين المشرق
يـؤوب عمـر تائـه	ان تغربي او تشرقي
روح كما الله ، حيث	عينيك سحـر الالق
يـا حلم حب مطلق	يرنـو لحب مطلـق
زهوت ، حتى لا شذى	يفدق ، ان لم تغدقي
ان نحن رحنا في غد	نزهـو بعمـر مـورق
فكـل حـب ، بعدنا	كحبنا ، لـم يخلـق
رقصت ، فاليم نـدى	علـى جناح الزورق
ان تقلقـي ، فموجه	يحزنـه ان تقلقـي
معـا سنمضي ، فانا	وانـت طهـر الشفق

فوزي عطوي

اخبرني مندوب المجلة ان المعهد يطبع الفين او ثلاثة الاف ، وان المسؤولين يقراون المجلة اذ ترسل للقاهرة اعداد كثيرة ، وقد اوصيت ان ترسل بعض النسخ لوزارة التربية فرحب الطالب وأخذ العنوانات !

قال احدنا : ومتى يظهر العدد ؟

فأجاب السيد الناظر : بعد شهرين على الأكثر ! اذ لا بد ان توزع قبل منتصف العام الدراسي فقد علمت انهم سيصدرون عددا آخر قبل نهاية العام ! هذا الطالب الازهري ذو حيوية جبارة ، وعلى حداثة سنه يصلح ان يكون مندوبا للاهرام ! فكيف يصير أمره لو تقدمت بـه الدراسة ونال الشهادة النهائية بالجامعة لا بد انه سيخلف طه حسين !

كان حديث المجلة مبدأ اتصال الناظر بنا ، فقد اخذ يمر على الحجرة في زيارات متقطعة ولكنه كان يشكو من ازمة نفسية تلوح دلائلها في سلوكه دون ان يهتدي الى حلها ، لقد كان فيحاجة الى من يمدحه ويطريه ، ولكنه ابتدأ العام منفعلا ، فلم يستطع ان يجد ما يريد من التوقير ثم اضطر الى ان يخفف من غلوائه اذ عدم النصير ! فأخذ يتودد يوما ، وينقبض اياما ! وما نعرف سببا للود ، او داعيا للانقباض ، ولكنه على كل حال قد ترك شؤون المدرسة للوكيل فأراح ، واخاله في اعماقه ما استراح !

ثم فوجئنا بعد زمن ما بدخول الناظر هائجا غاضبا يصيح :

أهذا جزائي ؟ لقد استقبلت هؤلاء الصغار بمكتبي ، وقابلتهم بمقابلة الكبار ، رحمة بهم وشفقة عليهم ، ثم اقابل بهذا النكران ؟

فسألنا في دهشة من هؤلاء ؟

فصاح الرجل في غيظ : مندوب مجلة المعهد ! الطالب الازهري الاعمى وزميله ! لقد ظهرت المجلة ، وفي الصفحات الاولى حديث طويل لناظر المدرسة الثانويـة التجارية يستغرق اربع صفحات ، اما حديثي ففي النصف الاخير ، وفي صفحتين اثنتين ! هذه اهانة ! اهانة لا تغتفر بحال ! من انا ؟ ومن ناظر الثانوية التجارية ؟!

قال احدنا : الرجل صديقك ولا ينقضي يوم دون لقاء وتزاور ! فأجاب منفعلا :

امر متعمد ! ووضع مقصود !

قال وكيل المدرسة في ملاطفة : يا اخي ، ليست هذه مجلات ، انها نشرات مدرسية توزع على الطلاب ولا تصل الى مسؤول !

فسكت الناظر قليلا كمن اقتنع ، ثم قال في أسف : لن اسمح لهذا الغبي بحديث بعد الآن ! انه تلميذ فاشل لا يعرف الاقدار !

وقد اخذت العدد ، لاقرأ فوجدت حديث الناظر التجاري يتعلق بالمدرسة وفروع نشاطها ومزايا التعليم التجاري وفائدته في الاقاليم النائية ، وطرق الدراسة العملية للطلاب وزيارة الاسواق القريبة ، وتدوين ملاحظات الزائرين كما يتحدث عن جماعة مسك الدفاتر وجماعة الآلة الكاتبة وجماعة المعرض المدرسي ! في نسق موضوعي مفيد ، اما حديث الناظر الحصيف فذاتي شخصي يتحدث عن تفوقه البارز طالبا ومدرسا وناظرا ، وعن تقريراته وامتيازاته ثم لا شيء !

ولم نعد نرى صاحبنا يزور زميله ناظـر مدرسة التجارة ، او يسير معه في طريق ، وكان ظهور العدد كان شجارا عنيفا ادى الى الخصام البغيض .

ثم مضى العام الدراسي فسعى صاحبنا كي ينتقل الى مدرسة اخرى ، فأجيب الى ما طلب ، وحل ناظر جديد .

القاهرة — **محمد رجب البيومي**



الدكتور وليم الخازن

التيار الانساني

في الشعر العربي الحديث

بقلم الدكتور وليم الخازن

* * *

من النتائج الناجمة عن تفاعل البواعث الخارجية والداخلية، انتشار غرض جديد من اغراض الشعر يتصدى للانسان في صميم حاجاته، وفي كل ما يؤول الى سعادته وتعزيز امكاناته وتحسين مصيره. واذا توسعنا بمفهوم الانسانية شمل الشعر كله، وهو يظهر عادة مع التحضر والثقافة والنضج الفكري. والتيار الانساني يقصد البشر جميعا ويتحسس اوضاعهم وقضاياهم، فيتوحدون تحت لوائه اينما وجدوا. وقول تيرانس مشهور في هذا المعنى: «انا انسان وكل ما هو انساني ليس غريبا عني». والانسان هنا هو الهدف وليس الوسيلة، ولهذا عظمت اهمية هذا التيار وبرز دوره الحضاري الخطير. وقديما قال بروتاغوراس «الانسان هو مقياس كل شيء». ولكن، هل يكون التيار الانساني من صميم التيارات الوطنية؟ ربما خالف هذه التيارات بمعناها السياسي: فالسياسة تحاول ابدا تغيير الانسان ولا ترضى عن واقعه. اما الانسانية التي نحن بصددها: فهي تنظر بشيء من المثالية الى الانسان، وتصرف النظر عن سيئاته. وتأثر العرب بالغرب واضح في هذا المجال بعد ان انتشرت بينهم آثار الانسانيين الكبار، او هم اطلعوا عليها في اسفارهم. واي مثقف عربي جهل: منذ اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن، امثال روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨)؛ وهيغو (١٨٠٢ — ١٨٨٥)، وكارلايل (١٧٩٥ — ١٨٨١)، وتولستوي (١٨٢٨ — ١٩١٠)؟ وقد وجدت اهم موضوعات التيار الانساني في الشعر العربي تندرج تحت عنوانات بارزة اهمها:

الانسان قيمة القيم

«الانسان قيمة القيم» شعار يكثر الكلام فيه، ويقل العمل به في المجتمع البشري الذي ما زال يسعى الى السيطرة والجاه. ومن البساطة والسذاجة ان يقال: اليس من الاوفق للانسان ان يبادل امثاله الحب والتضحية والمنفعة من ان يبادلهم البغض والاثرة والشر؟ كل الناس يعرفون ذلك، ولكن الميول، وتنازع البقاء، والقوة الغاشمة، ما زالت ابرز القيم في العالم. والشعر، بما فيه من مثالية، يدعو الى اعادة الاعتبار الى الانسان ووضعه فوق كل هدف وغاية لكونه اسمى الموجودات. ومع تعقد الحياة انحصر اهتمام الانسان بسبل معيشته، واتسع نشاطه، واعرض عن اخيه الانسان، لاجئا الى المنافسة والاعتداد بالنفس، وانما التكبر والعقوق آفة الآفات. ولماذا يتكبر الانسان ويحتال ويظلم ومصيره الى التراب؟ ومثل هذه النزعة وجدناها في شعر اسماعيل صبري (١٨٥٤ — ١٩٢٣) حيث يقول مثلا:

غاض ماء الحياة من كل وجه   فغدا كالح الجوانب قفرا
وتفشى العقوق في الناس حتى   كاد رد السلام يحسب برا
اغدا تستوى الانوف فلا ينظر   قوم قوما على الارض شزرا
اغدا كلنا تراب ولا ملك   خلاف التراب برا وبحرا
اغدا يصبح الصراع عناقا   في الهيولى، ويصبح العبد حرا

وفي قصيدة اخرى يقول:

أيها التائه المدل علينا   ويك؟ قل لي: من أنت؟ اني نسيت

واكثر ما برزت النزعة الانسانية في شعر المهجريين، وعلى الاخص في شعر جبران (١٨٨٣ — ١٩٣١) ونعيمه (١٨٨٩ —) وابي ماضي (١٨٩٤ — ١٩٥٧) وعريضه. وابدى بعض الشعراء ردة فعل على المجتمع الشرقي المتخلف الذي يتآكله الاهمال، ويخيم عليه التقاعس والكسل. واننا نجد تمثيلا واضحا لهذا الموقف في قصيدة نظمها الشاعر المهجري السوري جورج صيدح (١٨٩٣ —) عام ١٩٢٥ في مدينة نيس بفرنسا بعنوان «العيد في المنفى» يقول فيها:

ايقظي يا شمس قوما يطلبون   رزقهم من حيث يعطيه العمل
ودعي الخامل مثلي والفقير   يجرع الغم ويقتات الضجر
لا تظنيه بمرآك جدير   هو لو كان جديرا لانتحر

وحين كان العرب يدعون الى التجمع القومي جاهر ميخائيل نعيمه بعض سائليه بقوله : « ما هو العالم العربي ؟ انه نقطة في بحر الانسانية ، نقطة في بحر الكون » . وجاء مثل هذا التعبير على لسان جبران عام ١٩٢٦ اذ قال : « الارض كلها وطني والعائلة البشرية عشيرتي » . ومبعث قوله هذا شدة احساسه الذي جعله يشعر مع الناس ويعاني هومهم . وربما ارتبطت انسانية الانسان بعذابه ، وانسانية المهجرين بغربتهم وتشردهم ، فألم النفس يكشف الجوهر كما يقول روجيه مونييه . والهم يقيم الانسان من جديد في كيانه اي يجعله اكثر انسانية . وقد اهتم الشعراء بالانسانية المعذبة ، ودعوا الى مساعدتها . ومن اجمل هذه الدعوات ما جادت به قريحة ابي القاسم الشابي ، عام ١٩٢٨ ، في قصيدته « يا رفيقي » ، كما اننا نجد في نسيب عريضة صوتا معزيا يهيب بالقادرين ان ينهضوا الى نجدة المنكوبين والمعذبين ليظل جبين الانسان مرفوعا ، فالشقاء مهانة للانسانية جمعاء ، ودليل على نواقصها وعيوبها . ويبين الشاعر ، في الوقت نفسه ، مشاركته احاسيس البائس وبلاياهم .

وتميزت « جمعية ابولو » في مصر بنزعتها الانسانية العامة ، فقال مؤسسها احمد زكي ابو شادي (١٨٩٢ — ١٩٥٥) : « والى ولز وجبران اهديت روايتي الشعرية « اخناتون » نظرا لنزعتها الانسانية التي اتعشقها » . واظهر الشاعر نفسه في قصيدة « مذهبي » من ديوان « الشفق الباكي » الصادر عام ١٩٢٦ ، احتقاره للمال وعمله في سبيل الانسانية . وفي قصيدة « الصعلوك » بين فضل الفلاح ، واشتراك البشرية جمعاء في اجرامه اذا ما هوى الى الاجرام لانها مسؤولة عن حرمانه . وقصيدته « عبد العمال » ، تذكرنا بقصيدة « حلم » للشاعر الفرنسي سولي برودوم (١٨٣٩ — ١٩٠٧) اذ ان كلتا القصيدتين تظهران فضل العامل وضرورته لتوفير وسائل العيش والحياة الكريمة لبني البشر . وتتنوع النزعة الانسانية في شعر احمد زكي ابي شادي ، فلا تتوقف عند حسن المعاملة المادية ، وانما تتعداها الى صيانة الكرامة والفكر الانساني ، اذ ان خسارتهما اصعب من الموت . ولما كانت قيمة العامل والفلاح كبيرة الى هذا الحد كيف يرضى الناس بمذلتهما وبؤسهما ؟ فينبري الشاعر عبد الحميد الديب (١٨٩٩ — ١٩٤٣) من جماعة ابولو يصف ما يقاسيه الفلاح في مجتمع عاق ويقول :

يا ذلة العيش بين البؤس والشرف عيش هو الموت في الحرمان والتلف

وكان الشاعر علي محمود طه قد دافع عام ١٩٣٠ عن الانسان المضطهد الطريد ، ودعا الناس الى التزام الحق والعدل والمحافظة على القيم الانسانية ، وبشر الشاعر صالح جودت « بالهدى والسلام وقيمة نشرهما في العالم » . وتطرقت جماعة ابولو باحساسها المرهف الى آفة « البغاء » ، فوصف صالح جودت مأساة البغي في قصيدته « الهيكل المستباح » ، وصورها مظلومة ، منتهكة ، يتناوشها اللصوص البغاة ، ويعاملونها معاملة السلعة المبتذلة ، فيرجو خلاصها في الآخرة .

وشاركه في هذه النظرة الانسانية الى البغاء زميله الشاعر محمود حسن اسماعيل في قصيدته « دمعة بغي » . ودعت هذه الجماعة الى العلم الذي يرفع قيمة الانسان ، والى السلام والتسامح والحب الذي يغفر كل اساءة . واجمل ابو شادي زعيم جماعة ابولو « نزعتها الانسانية » بقوله ان الشاعر الحق هو « الشاعر الانساني » في قصيدة بهذا العنوان جاء فيها :

لا ارى غيره قمينا بعرش لنظيم يعيش في الاجيال

ولم يكن المجتمع العربي اكثر الشعوب تأخرا في هذا الميدان ، فما زالت المجتمعات المتقدمة في العالم ، حتى اليوم ، تسعى وتجاهد في سبيل وضع القيمة الانسانية فوق كل الاعتبارات الزمنية .

الصراع بين القومية والانسانية

ترسخت خلال القرن التاسع عشر في بعض صنوف الشعب ، لدى مختلف الامم ، فكرة قيادية نشطت الى جانب العقائد القومية . وهذه الفكرة هي الدولانية ، وهي لا تقل قدما عن فكرة القومية ، وقد دعيت ايضا الفوق الدولية ، او الدولية ، او العالمية . وظلت هذه الافكار الانسانية العامة الخط الاكبر الذي يهدد مبدأ القوميات خلال اواخر القرن الماضي ، ومطلع هذا القرن . والغايات مختلفة بينهما ، فالانسانية لا تبحث الا عن ذاتها ، اما القومية ، فتأخذ كيانها من الخارج (اللغة — التاريخ — الارض — العنصر الخ . . .) . وقد غلبت الانسانية على شعراء المهجر الشمالي ، كما غلبت القومية على شعراء المهجر الجنوبي . وسمع العرب هذه الدعوة الانسانية العامة خلال فترة من الزمن تناوشت ارضهم فيها قوى استعمارية فرضت عليهم الجهاد ، والمقاومة ، والتجمع القومي ، فقام بعض شعرائهم يرفضون الدعوة الانسانية التي تتخطى الدعوة القومية ، لا لضلالها ، ولكن لتسللها الى المجتمع العربي في وقت غير مناسب اذ انها برأيهم ، تثبط الهمم ، وتحمل العرب على القبول بمشاركة سائر الامم لهم في حكم بلادهم ، بينما هم في الواقع بأشد الحاجة الى الافكار التي تحثهم على النضال والجهاد لتحرير بلادهم .

وبهذا المعنى علينا ان نفهم الشاعر القروي (١٨٨٧ —) حينما راح يدعو السوريين والعرب عام ١٩٣٣ الى الاثرة والعصبية وبغض الشعوب . ويتبلور موقف الشاعر القروي ازاء موقف الياس قنصل (١٩١٤ —) الذي راح يسوغ تعصبه لوطنه ، وحبه له دون سائر

الاوطان بانه شقي وغير مستقل . ولو تعمق هؤلاء الشعراء في النظر الى العلاقة بين القومية والانسانية لاختلفت اقوالهم في هذا المجال اذ انه لا تناقض ولا نزاع بين القومية والانسانية ، فيما قيمتان متفاعلتان متلازمتان . والانسانية هي الغاية السامية للقومية الواقعية التي تنطلق من اسس تناسب نموها وتطورها . وما زال الصراع بين القومية والانسانية يتنازع اتجاه العرب الذين اعطوا الانسانية حضارة تليدة ، وكان عليهم ، في الوقت نفسه ، ان ينموا الحقد في نفوس ابنائهم على الدول التي سلبتهم حقوقهم ، واغتصبت بعض بلادهم .

حرية الانسان

لا انسانية بلا حرية . وان تكون انسانا هو ان تقرر بغير رجوع ان الحرية هي قانون الفكر . لذلك راينا الثورة الفرنسية ، مثلا ، تضع الحرية على راس شعاراتها حينما ارادت ان تعيد للانسان اعتباره . وقد تحرك المجتمع العربي يطلب التحرر في اواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن خاصة ، وكانت وقفة رائدة للشاعر الياس صالح (١٨٧٠ — ١٨٩٥) عام ١٨٨٨ في الجامعة الامريكية ببيروت اذ هتف على الملا ابان العهد الحميدي المستبد ان الناس سواسية في انسانيتهم وحريتهم . ونشر عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ — ١٩٠٢) ، عام ١٩٠١ بمصر ، كتابه : « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » ، بعد نشره مفرقا في صحيفة المؤيد عام ١٨٩٩ . وراح مصطفى كامل ، واتباعه من الكتاب والشعراء ، يطالبون الانكليز والخديوي بدستور وبرلمان للبلاد عام ١٩٠٧ .

وعند انتهاء الحرب العالمية الاولى ، وضع الرئيس الامريكي ولسون (١٨٥٦ — ١٩٢٤) مبادئه المشهورة ، ومن ابرزها حق تقرير المصير ، فهلل لها العرب ، واخذ شعراؤهم يذكرون الرئيس ولسون في شعرهم ويثنون على مبادئه واعماله ، كما فعل الشاعر عبد المحسن الكاظمي (١٨٦٥ — ١٩٣٥) في قصيدة القاها عام ١٩١٩ بعنوان « تحية لرسول السلم » . والشاعر التونسي ابو الحسن بن شعبان (١٨٩٧ —) في قصيدته : « رثاء زعيم السلم العام ولسون » ومطلعها :

بلغت من الدنيا اجل مقام ... وفارقتها من قبل نيل مرام

غير ان حرية الامم بتقرير مصيرها بقي حبرا على ورق بالنسبة الى الدول العربية ، مما حدا شعراءهم على اظهار خيبة الامل من الحرية التي وعد بها الغرب ثم اخلف بوعده ، فحرر الاسير ليستعبد الامم كما جاء على لسان معروف الرصافي (١٨٧٥ — ١٩٤٥) عام ١٩٢٠ . وكان للشاعر التونسي ابي القاسم الشابي وقفات شديدة هاجم فيها الطغاة ، وبشرهم بانهم سيكونون الضحية الاولى لطغيانهم .

ولم تكن حرية الانسان في المجتمع العربي مرهونة بحريته السياسية ، فقد كان المجتمع يعاني من قيود تنبع منه بالذات ، وتنطلق من تخلفه ومما يسوده من خرافات وعادات مبعثها الجهل والانحطاط . ولم يغفل الشعراء العرب هذه الآفات ، بل فندوها ، ودعوا الى نبذها ، كما صاح الشابي عام ١٩٢٥ صيحته التي يقول في مطلعها :

يا قوم ! عيني شامت ... للجهل في الجو نارا
تتلو سحابا ركاما ... يتلو قتاما مثارا

وقد قال الدكتور عز الدين اسماعيل في مقدمته لديوان الشابي : « كانت الدعوة الى تحرير الانسان من قيوده التقليدية البالية هي في الوقت نفسه دعوة الى تحرير الانسان من الظلم السياسي والاجتماعي الواقع به » .

حقوق الانسان

شكل اعلان حقوق الانسان ، على اثر الثورة الفرنسية (١٧٨٩) ، انطلاقة جديدة في جهاد الشعوب لكسب حقوقها . ولم يكن وضع البلاد العربية في ظل الاستبداد التركي مؤاتيا للتوصل الى مكاسب انسانية حضارية . فالعدل يترجح بين يدي الحاكم والسلطان كالسيف المصلت فوق الرؤوس ، فلا حقوق تعطى ولا من يجرؤ على المطالبة بها ، الا ان الاديب المخلص لا يخنق صوت الحق معرضا مصالحه للضرر وحياته للخطر . فلم تمنع ولي الدين يكن (١٨٧٣ — ١٩٢١) التركي الاصل ، العربي المنشأ ، اية اعتبارات من وصف جور الاتراك والقائهم الابرياء في مياه البسفور لمجرد تهمة او وشاية ، مؤرثا في الناس بغضا وثورة دفينة على الاتراك . وازعج الناس ان يروا الشعوب الصغيرة لعبة في يد الشعوب الكبيرة ، وهالهم الحق المائل حيث تميل القوة ، والجيوش تتفانى في سبيل نزوات طائشة ، والكبير منها يغلب الصغير . فقال الشاعر اسماعيل صبري عام ١٩١٠ من قصيدة :

والورى طارد ازاء طريد ... وعقاب تمسي تطارد صقرا
وجيوش يفل من بعضها البعض ... وهضب كبرى تناطح صغرا

وانبرى الشاعر التونسي ابو الحسن بن شعبان (١٨٩٧ —) يصف اهوال الحرب العالمية الاولى سنة فسنة ، ويستقبل العالم الجديد بما يليق به من تأهيل ، معددا ويلاته ، او مستبشرا به ختاما لشرور الحرب الطاحنة . ولا غرو ان يتوقف عند مظالم الحرب المؤثرة عدد كبير من الشعراء ، كما نرى في قصيدتي « البائسة » و « السلم » لخير الدين الزركلي عامي ١٩١٧ و ١٩١٨ . ووقف الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي ، قبيل عام ١٩٢٣ يدافع عن حق الفقير المستضعف ويشجعه ويبشره بفجر منير ، ويصف طمع الغني القادر ، ويحث الحكام على خدمة الشعب بصدق واخلاص لئلا يثور عليهم وينتقم منهم ، حتى انه تبنى الآراء الاشتراكية ، وراح

ينشرها بين مواطنيه ، ومنها :

ان من كدوا يزرعون البقاعا اشبعوا غيرهم وماتوا جياعا
ومن العدل ان يكون نتاج الارض بين المستعمرين مشاعا

ومن ابيات اخرى :

يا ايها الفقراء لا تستيئسوا ، من عيشة يا ايها الفقراء

وحلل الشابي عام ١٩٢٨ ، في قصيدته « بقايا الخريف » : سببَ الحروب ، ومغبتها . فهي نتيجة صراع اهل القصور وجشعهم ، واغتصاب القوي لحق الضعيف ، وتربص الضعيف بالقوي ، وحقده عليه . ونتيجتها ويلات ، ودموع ، وفقر ، ويتم ، وترمل . وكل ذلك يضفي على القصيدة جوا من الحزن والاسى يخيم على مصرع الحق وبسيادة البغض في العالم . ويبين الشاعر نفسه ، في قصيدة اخرى عام ١٩٣٣ ، سخطه على الناس الذين لا ينصفون ، ويبشرهم بالويل من اهوائهم . وحوالي هذا التاريخ وصف الشاعر السوري محمد النراتي مخلفات الحروب بقوله :

نظرت اذا بجيش هنالك زاحف على مثله والجو اغبر اقتم
وفي ساحة « الرين » الجيوش محفة بساقي الردى والارض يغمرها الدم
فلله اشلاء هناك تمزقت ولله اطفال هناك تيتموا
على مثل هذا يسكب الشيخ دمعه ومن مثل هذا يخجل المتعلم

وفي مجال حقوق الانسان تطرق الشعراء الى حق الفقير في ذمة الغني ، والى وجوب العمل على اشاعة المساواة والعدل بين الناس ، وحاربوا التسلط والاستعباد. كما ندد الشاعر المهجري جورج صوايا بالذين يسوغون للاغنياء هضم حقوق الفقراء ، ووصف ما يثيره هذا التصرف من حقد في نفس الفقير ومن توق الى هلاك الغني .

تحرير المراة

لما انفتح العالم العربي على الغرب في القرن الماضي ، اذهلته حرية المراة ، ومشاركتها للرجل في الحياة الثقافية والاجتماعية ، فاخذ يتبنى الآراء التي تتماشى والمجتمع الشرقي المتطور . وقد اجمع الادباء اللبنانيون على ان المعلم بطرس البستاني (١٨١٩ — ١٨٨٣) كان اول صوت يدوي بتحرير المراة وتعليمها ، وذلك بالقائه خطابا في « تعلم المراة » عام ١٨٤٩ . اما الادباء العرب عامة ، فيستحوذ على اذهانهم ان اول من دعا الى تحرير المراة العربية هو رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ — ١٨٧٣) ، ثم قاسم امين (١٨٦٥ — ١٩٠٨) ، غير ان تعاليم الطهطاوي ومواقفه الداعية الى تعليم المراة إنتشرت في عهد اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) . وقد اصدر قاسم امين كتابيه « تحرير المراة » و « المراة الجديدة » تباعا في عامي ١٨٩٩ و ١٩٠٠ ، مما يرجح الريادة في الموضوع لاديبنا المعلم بطرس البستاني .

واذا التفتنا الى الشعر العربي في نظرته الى المراة ، وتعليمها ، وتبيين دورها الاجتماعي ، ملأت نواظرنا ابيات حافظ ابراهيم (١٨٧٢؟ — ١٩٣٢) في قصيدته « كم ذا يكابد عاشق ويلاقي » التي يقول فيها :

من لي بتربية النساء فانها في الشرق علة ذلك الاخفاق
الام مدرسة اذا اعددتها اعددت شعبا طيب الاعراق

وان ظل هذا الشاعر متحفظا في دعوته الى تحرير المراة ، فوافق على تحجيبها دون الاسراف في التضييق عليها . واكتفى معروف الرصافي عام ١٩٣١ بالدعوة الى تعليم المراة ، ورفع مستواها ، وهاجم المتعصبين الذين يضيقون عليها ، وندد بالطلاق من غير ان يتطرق الى الحجاب الذي ثار عليه مواطنه جميل الزهاوي (١٨٦٣ — ١٩٣٦) ، حوالي عام ١٩٣٢ ، بأبيات حماسية ثائرة . وكان للشعر العربي ، من بعد ، دور فعال فيما وصلت اليه المراة العربية الحديثة من تقدم ، ورقي ، ومشاركة للرجل في مختلف المجالات .

الطبقية

عالج الشعر العربي وضع الفقراء ، وتحدث عن العدالة الاجتماعية ، كما نرى مثلا شعرا انسانيا ودفاعا عن الفقير لدى نسيب عريضة المولود عام ١٨٨٧ ، وقد قرض الشعر وهو في الخامسة عشرة من عمره . ونرى وصفا لحال الفقراء وحثا على مساعدتهم في قصيدة للامير نسيب ارسلان (١٨٦٧ — ١٩٦٧) عام ١٩١٢ ، ذكر فيها بالثورات والفتن التي اشعلتها الطبقات المحتاجة في وجه مستغليها . كما دعا الشاعر المغربي احمد مبكرج (١٨٧٨ —) الاغنياء الى الاخذ بايدي الفقراء والاهتمام برفع مستواهم من الناحيتين الانسانية والتعليمية في قصيدته : « الى الاغنياء » ، حيث قال :

خذوا بالايادي ايدي الفقراء في سلوك طريق العلم تستكملوا النعم

وفي مقدمة الشعراء الداعين الى العدالة الاجتماعية محمد رضا الشبيبي الذي قابل في بعض قصائده بين حالتي الفقير والغني قبل الحرب العالمية الاولى مستثيرا الشفقة والرحمة على الفقير . وانتشرت النظريات الانسانية الاجتماعية في الغرب بعد الثورة الروسية ، واخذ الفلاسفة الاجتماعيون يبثون آراءهم كما فعل الفيلسوف اوغست كونت الذي عرفت مبادئه الانسانية في اميركا الجنوبية على يد تلاميذه ومناصريه من رجال الفكر والادب بعد عام ١٨٢٢ ، ومنها الغاء الطبقية ، وتحرير العبيد ، والتعاون بين الناس .

ولا شك في ان شعراء المهجر في اميركا الجنوبية خاصة افادوا الكثير من نظرياته بعد ان طالعوها في كتابات الادباء المحليين ، فرفضوا التفريق بين الناس بالنسبة لوضعهم الاجتماعي او لونهم او اصلهم . وبشر الشاعر

القروي بانقضاء عصر النخاسة اذ كان العبد يشقى ليسعد السيد ، وراح يبث الثورة في نفوس العمال . وحنن الشاعر توفيق برير قلوب الناس على حالة البؤساء والفقراء ، ودعا الى اعانتهم محرضا الفقير على الغني الذي لا يستطيع ان يستغني عنه . ونظم الشاعر التونسي سعيد ابو بكر (١٨٩٩ ـ) قصيدة يدعو فيها جمعية انشأها بعض الاجانب في تونس للرفق بالحيوان ، الى الرفق بالانسان . ونبه بعض شعراء المهجر الجنوبي الى شرف المهن والى انها ليست مدعاة للتمييز بين البشر . فكل المهن ضرورية وشريفة ، والعمل ، مهما كان نوعه ، يرفع قيمة الانسان ويزيد انسانيته . اما الذي يفرق بين عامل وآخر ، فهو الاتقان والامانة والاخلاص في العمل .

ومثل هذه التعاليم دخلت الشرق العربي لتقوي نزعته الانسانية الهادفة الى الحد من تباعد الطبقات (مع العلم ان هذه النزعة لم تكن جديدة كل الجدة على المجتمع العربي ، فقد عرفها مثلا في الزكاة وغيرها) ، فدعا حافظ ابراهيم بين عامي ١٩١٠ و ١٩١٩ الى رعاية الطفل ومساعدة البائس المعذب ، وايواء اليتيم ، ونادى المصلحين للعمل على توزيع ثروة البلاد توزيعا عادلا ، ولمكافحة الغلاء ، فقال من قصيدة :

ايها المصلحون ضاق بنا العيش ولم تحسنوا عليه القياما
عزت السلعة الذلية حتى بات مسح الحذاء خطبا جساما
وغدا القوت في يد الناس كاليا قوت حتى نوى الفقير الصياما
ويخال الرغيف في العيد بدرا ويظن اللحوم لحما حراما

ورأينا مثلا علي الجارم (١٨٨١ ـ ١٩٤٩) في العشرينات يسأل الاغنياء عما اذا كانوا قد ادوا واجبهم في مساعدة الفقراء ، ومصطفى الرافعي (١٨٨٠ ـ ١٩٣٧) يطلب منهم الشفقة على المعوزين ، فلا تلهيهم طراوة العيش عن اغاثة بني جنسهم . وما زالت الطبقية مدار صراع عالمي تتنازع في معالجتها المذاهب الفلسفية ، وتدور حولها العقائد السياسية .

تدهور الحضارة الجديدة

يتخذ هذا الموضوع الانساني خطورة خاصة عند العرب الذين نظر تاريخهم الى الغرب نظرة اعجاب ، وتضاءلوا امام منجزاته العظام ، ذلك الغرب الذي ، ما كادوا يفيدون من تقدمه ، ويقتبسون منه ، حتى اطلعوا على نكوصه . ودل ذلك على زوال العقدة الغربية من نفوسهم ، وعلى مواكبتها للحضارة الجديدة . وكأن المدنية بلغت في الغرب مبلغا يذكرنا بنظرية العالم العربي ابن خلدون الذي رأى في الحضارة نذير انحطاط وهرم . وكان تدهور الحضارة الغربية ، التي سيطرت عليها الآلة والمادة ، مدار ابحاث مهمة في الغرب من ابرزها كتاب العالم الالماني اسوالد اشبنغلر « تدهور الحضارة الغربية » وكتاب ريمون ارون الجليد « دفاع عن اوروبة المتدهورة » . وربما نتج هذا الوضع عن طغيان التفكير العلمي الذي ينظر الى الخارج متعديا التفكير الانساني الذي يرتد الى داخل الانسان او جوهره . فرفاهية الحضارة الحديثة غير السعادة الداخلية التي يهنأ بها الانسان اذا راعى المجتمع اوضاعه وظروف معيشته . والمظاهر البراقة لا تغني عن الجوهر اذ يخفي الانسان المتمدن حقيقة اهدافه وراء وجهه الانيس الضاحك . وقد التفت ابو القاسم الشابي الى هذا المعنى عام ١٩٢٧ في قوله من قصيدة « الدموع » :

لا يغرنك ابتسام بني الارض فخلف الشعاع لذع اللهيب

وهو يذكرنا بقول المتنبي (٩١٥ ـ ٩٦٥) قبل الف عام :

اذا نظرت نيوب الليث بارزة فلا تظنن ان الليث مبتسم

وازاء التدليس الاجتماعي ، يقف الشابي مبتهجا امام الطفولة الحالمة السعيدة عام ١٩٢٨ . وحوالي عام ١٩٣٠ ندد الشاعر العراقي رضا الشبيبي بالمدنية الحديثة ، ونعتها بالخداع ، والكذب ، والقسوة ، والظلم . اما العصر فحري به ان يدعى عصر ضلالات لا عصر هداية . وقد وافقه على ذلك عام ١٩٣١ الشاعر اللبناني امين ناصر الدين الذي رأى ابناء هذا العصر يخبطون في الغياهب ، ويحسبون رقيا ما يجدر به ان يسمى زينا وشرا .

وقد وعى العربي المثقف خطر العلوم المادية على المجتمع اذا لم ترافقها اخلاق قويمة ، وفلسفة انسانية متطورة . ويمكننا ان نضع ردة فعل العرب هذه في اطار المقاومة العالمية التي تلقاها الحضارة الحديثة من قبل النشء ، والفلاسفة ، ورجال الفكر ، والمتصوفين الذين يعودون بالانسانية الى منابعها الاصيلة .

وليم الخازن

اللحن الحزين

الدكتور ابو فراس النطافي

الكويت

لا تنكر البعد واذكر طيب لقيانا … فبين ذاك وذا شتان شتانا

دع الفؤاد مع الاحباب منطلقا … يلهو ويمرح نشوانا وجذلانا

يشارك الصحب والاهلين فرحتهم … ويملأ الكون انغاما والحانا

فبهجة العمر ايام لها عدد … تمضي سراعا ، وليل البؤس يغشانا

فمن طباع الليالي انها جعلت … بين التداني وبين الناي شريانا

فما تجمعنا الا لفرقتنا … وما مسرتنا الا لشكوانا

فقد خبرت الليالي في تقلبها … تفرق الناس ارواحا وابدانا

فلم أذق حلوها الا تجرعني … كاس المرارة بالالام ملآنا

ولم ازل وصروف الدهر تتبعني … ظلما وبعدا وتشريدا وحرمانا

حتى فقدت أعز الناس منزلة … عندي ، واكثرهم فضلا واحسانا

شربت من وده الصافي وراحته … لي شهيا ، واخلاصا ، وايمانا

فما الجمال — وان لاقيت — ينقصه … ولا الفضائل ما زين انسانا

كل المحاسن فيه ، انه ملك … يغاير الناس تكوينا ووجدانا

فقدته وضحا ، والنفس حائمة … عليه ، تلثمه شوقا وتحنانا

تمجد الروح في بلور خالقها … وتعشق الجسم بالانداء ريانا

فغاب نجمي ، ودار السعد مختفيا … عني ، وخلفني في الحزن غرقانا

وجف عودي ، واوراق الندى يبست … على الغصون بآذار ونيسانا

والطير صامتة حولي ، فما هزجت … لحنا ، ولا الفت روضا وبستانا

والدار باكية ، في كل زاوية … منها ، احس مناحات واشجانا

أسائل المنزل المهجور اين غدت … أين التي ملأت دنياي ريحانا

ما بال (نادية) شبطت مرابعها … وابقت الدار اشباحا واكفانا

اشم رائحة الازهار في وله … لعل فيها بقايا من بقايانا

واحضن الشال والمنديل محترقا … بالشوق يوقد في الاحشاء نيرانا

وكلما نظرت عيني لصورتها … اغالب الدمع في العينين هتانا

واترك الدار مذعورا على عجل … كأن في الدار عفريتا وشيطانا

هذا الزمان ، وهذي جل صنعته … يفرق الاهل والاحباب مذكانا

ويترك الدار بعد الانس موحشة … والروض بعد الشذا شوكا وعيدانا

وذا التلاقي — وان جاد الزمان به — … يعود هجرا وسلوانا ونسيانا

فيا ربيع فؤادي اينما نزلت ، … انت الربيع الذي قد زان دنيايا

حسب الهوى انني أحيا على امل … فربما جادت الدنيا بلقيانا

وربما عطفت بالود غائبة … على اليف لها بالعهد ما خانا

فانت في القلب رغم البعد نازلة … لن تبرحي القلب مهما شط مرسانا

حبيبة الروح لن انساك ما خفقت … في الحياة وظل القلب يقظانا

ولن اقول وداعا لست احمله … فدونه الموت بل في الموت سلوانا

فالعيش بعدكم شحت موارده … والحظ عاكسنا ، والدهر عادانا

فانكم كنتم للروح بهجتها … وللفؤاد هناء منذ لقيانا

نهون عندكم ، لكن حبكم … في القلب باق — وحق الله — ماهانا

لن يستطيع الليف بعدكم ابدا … ان يشغل القلب او ينسيه ذكرانا

ولا التقائي مع الاصحاب يشغلني … عمن احب وينسيني الذي كانا

وكيف انسى ونار الشوق تحرقني … وتصهر الروح آلاما واحزانا

فلا تظني بنات الشعر موهبة … على الطروس جرت معنى وأوزانا

او انها قبس من فيض معرفة … جادت بها خبرة الايام عقيانا

هذي عصارة قلب ذاب من كمد … سالت على الطرس انغاما والحانا

فانني حين اشدو فيك قافية … أذوب فيها احاسيسا ووجدانا

ويعلم الله اني في مكابدتي … نقشت العذاب تلاوينا والوانا


محمد العدناني

عـثرات الادباء

بقلم محمد العدناني

* * *

تبقّى عندي مال ، تبقيت عندي مالا

ويخطئون من يقول : تبقى (بفتح ففتح فتضعيف) عندي مال ، وتبقيت عندي مالا ، ويقولون ان الصواب هو : بقي عندي مال ، وابقيت عندي مالا .

ولكـن :

(أ) اجاز لنا المصباح ان نستعمل الفعل (تبقى) لازما ، حين قال : تبقى من الدية كذا .

(ب) واجاز لنا استعمال الفعل (تبقى) متعديا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حين قال : « تبقه (بفتح ففتح مضعف فسكون) وتوقه (مثل تبقه) » اي : استبق النفس ولا تعرضها للهلاك ، وتحرز من الآفات . أما الهاء في الفعلين فهي للسكت .

وممن استعمل الفعل (تبقى) متعديا ايضا : الصحاح ، والنهاية ، والمختار ، واللسان ، والقاموس ، والتاج ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن ، وقولي في احدى قصائدي :

ان تبقيت يا زماني سهما لم يفرج بدمع قلبي فهاته

(ج) واجاز لنا استعمال الفعل (تبقى) لازما ومتعديا : المد والوسيط .

البكـرة (بفتح الباء وتسكين الكاف وفتحها)

الاسطوانة المصنوعة من الخشب ونحوه ، والتي تلف عليها الحبال ، يخطئون (بتضعيف الطاء) من يسميها بكرة (بفتح ففتح) ، ويقولون ان الصواب هو البكرة (بفتح فسكون) : لان الصحاح ، وابن مكي الصقلي في « تثقيف اللسان » ، وابن الجوزي في « تقويم اللسان » ، والنهاية ، والمختار اكتفت بذكر البكرة (بفتح فسكون) ؛ ولان الصقلي وابن الجوزي حذرا من استعمال البكرة (بفتح ففتح) .

ولكـن :

اجاز لنا استعمال البكرة (بتسكين الكاف) والبكرة (بفتحها) كلتيهما كل من الليث بن سعد ، والتهذيب ، ومعجم مقاييس اللغة ، والمحكم ، والصاغاني ، واللسان ، والمصباح ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط .

وتجمع البكرة (بفتح فسكون) على بكر (بفتح ففتح) ، وهو من شواذ الجمع ، لان فعلة (بفتح فسكون) لا تجمع على فعل (بفتح ففتح) ، الا احرفا (كلمات) ، مثل : حلقة وحلق ، وحماة وحما ، وبكرة وبكر كما يقول كثير من المعاجم . اما البكرة (بفتح ففتح) فتجمع على بكرات (بفتح ففتح) . وتسكين الكاف اعلى من فتحها .

البكـر (بكسر فسكون)

ويخطئون من يسمي المراة ، بعد ان يدخل بها الرجل بكرا (بكسر فسكون) . ويقولون ان البكر هي المراة قبل ان يدخل بها الرجل (نقلها الازهري عن الليث بن سعد) ، وتسمى ثيبا (بفتح فياء مضعفة مكسورة) بعد ان يدخل بها الرجل (نقلها الازهري عن الحراني عن ابن السكيت) .

ويخطئون ايضا من يسمي الرجل ، الذي لم يتزوج ، بكرا (بكسر فسكون) ، ويرون ان الصواب هو : عزب (بفتح الزاي) ، وعازب ، وعزيب (بفتح فكسر) ، واعزب ، ومعزابة (راجع معجم الاخطاء الشائعة للعدناني) .

وهم مخطئون في الحالين ، اذ :

(١) جاء في الاضداد لابن الانباري : يقال : امراة بكر (بكسر فسكون) ، قبل ان يدخل بها الرجل ، ويقال لها بكر بعد ان يدخل بها . ويقال للولد الاول بكر (بكسر فسكون) ، ولأبيه بكر ، ولأمه بكر . وروى ابو عبيد عن الكسائي : هذا بكر ابويه ؛ وهذه بكر ابويها : اول ولد يولد لهما .

(٢) وجاء في المغرب والمصباح : والبكر خلاف الثيب ، رجلا كان او امراة ، وهو الذي لم يتزوج .

(٣) وقال المتن : البكر :

(أ) العذراء لم تفتض . والمصدر : البكارة (بفتح الباء) .

(ب) الرجل لم يقرب امراة بعد .

(ج) اول ولد ابويه ؛ جارية كان او غلاما .

(د) التي تلد بطنا واحدا ؛ امراة كانت او ناقة .

والجمع : ابكار وبكار (بكسر الباء في الجمع الثاني) .

(هـ) البكر من كل شيء : اوله (مجاز) . والجمع : ابكار .

(٤) وقال الوسيط : البكر (بكسر فسكون) :

(أ) العذراء .

(ب) الرجل لم يتزوج . .

(٥) وروى التضاد عن ابي الطيب اللغوي ، انه قال : « البكر من النساء : التي لم تفتض ، والبكر : التي ولدت اول بطن » . وهو ما قاله معجم مقاييس اللغة ايضا .

ومع ذلك :

لا انصح باستعمال كلمة بكر (بكسر فسكون) الا للعذراء ، لان هذا هو المعنى المعروف ، ولا حاجة بنا الى استعمال المعنى الثاني (ب) ، الذي ذكره الوسيط . وفي الحديث : « عليكم بالابكار ، فانهن اعذب افواها ، وانتق ارحاما » . اي : اكثر اولادا .

بكم وبكمان وأبكام

ويخطئون من يجمع الابكم على بكمان (بضم فسكون) ، ويقولون ان الصواب هو : بكم (بضم فسكون) ، لان القياس هو ان نجمع افعل فعلاء على فعل (بضم فسكون) . ومؤنث الابكم هو البكماء .

ولكن :

شذت كلمة ابكم ، فجمعت على :

(١) بكم (بضم فسكون) : وردت في القرآن الكريم في الآية ٩٧ من سورة الاسراء ، وذكر البكم ايضا : معجم الفاظ القرآن الكريم ، والازهري ، ومفردات الراغب الاصفهاني ، والمصباح ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط .

(٢) وبكمان (بضم فسكون) : الازهري ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط الذي قال انها جمع بكيم ، والحقيقة هي ان البكم والبكمان هما جمع الابكم .

اما البكيم (بفتح فكسر) الذي يحمل معنى الابكم فجمعه :

(٣) ابكام (بفتح فسكون) : ابن دريد ، ومعجم مقاييس اللغة ، ومستدرك التاج : والمد ، وذيل اقرب الموارد .

اما المتن فقال ان الجمع (ابكام) هو جمع الجمع .

وممن ذكر ان معنى البكيم كالابكم : الصحاح ، ومعجم مقاييس اللغة ، والمختار ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط .

وانشد الجوهري :

فليت لساني كان نصفين منهما بكيم ، ونصف عند مجرى الكواكب

واهمل النهاية ذكر البكيم ، واكتفى بذكر الابكم .

اما فعله فهو :

(أ) بكم (بفتح فكسر) يبكم (بفتح الكاف) بكما (بفتح ففتح) .

(ب) بكم (بفتح فضم) يبكم (بضم الكاف) بكامة (بفتح الباء) : انقطع عن الكلام جهلا ، او تعمدا فهو : بكيم (بفتح فكسر) .

بلصه (بفتح فتضعيف) من ماله

يقولون : بلص (بفتح ففتح) فلانا ماله (بفتح اللام) ، وبلص فلانا من ماله ، ولم اعثر على الجملة الاولى في المعاجم ، وعثرت على الجملة الثانية في محيط المحيط الذي اخطأ ، ولجأ اليه الوسيط ــ كما ارجح ــ فأخطأ مثله ، لانني لم اجد جملة (بلصه من ماله) في المعجمات الاخرى .

والصواب هو : بلصه (بفتح فتضعيف) من ماله : سلبه اياه ، كما يقول ابن عباد ، والقاموس ، والتاج ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن ، وعبد القادر المغربي في « عثرات الاقلام في اللغة » ، والوسيط .

وقد اهمل ذكر الفعل بلصه (بفتح فتضعيف) : التهذيب ، والصحاح ، ومعجم مقاييس اللغة ، والاساس ، والمختار ، واللسان ، والمصباح ، والمد ، ودوزي .

البلوعة (بتضعيف اللام) ، البالوعة ، البلاعة (بتضعيف اللام) ، البليعة (بضم فتضعيف اللام المفتوحة)

ويظنون ان البلوعة (بتضعيف اللام المضمومة) ، وهي الثقب المعد لتصريف الماء ، هي كلمة عامية . ولكنها فصيحة : ابن درستويه ، والصحاح ، وهامش معجم مقاييس اللغة ، ومفردات الراغب الاصفهاني ، والمختار ، واللسان ، والمصباح ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن ، ومحمد علي النجار ، والوسيط .

ومثلها البالوعة : ادب الكاتب ، وابن درستويه ، والتهذيب ، والصحاح ، وهامش معجم مقاييس اللغة ، والبطليوسي ، وابن الجوزي في «تقويم اللسان» ، والمختار ، واللسان ، والمصباح ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط .

والبلاعة (بتضعيف اللام) كالبلوعة (بتضعيف اللام) والبالوعة : ادب الكاتب ؛ وابن درستويه ، وهامش معجم مقاييس اللغة ، والبطليوسي ، والقاموس ، والتاج ، والمد، ومحيط المحيط . ودوزي ، واقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط .

وينفرد معجم مقاييس اللغة بذكر البالوع .

ويزيد التاج ، والمد ، والمتن اسما رابعا هو : البليعة (بضم ، فتضعيف اللام المفتوحة فسكون) .

ويقول اللسان ان البالوعة هي لغة اهل البصرة .

وتجمع البلوعة (بتضعيف اللام المضمومة) ، والبلاعة ، والبالوعة على : بواليع وبلاليع .

اما البليعة (بضم فتضعيف اللام المفتوحة ، فسكون) فجمعها : بليعات .

سعد بلع (بضم ففتح)

سعد بلع هو احد منازل القمر من سعود النجوم ، وهي عشرة ، اربعة منها من منازل القمر ، وتسميه العامة سعد بلع (بفتح ففتح) ، والصواب : سعد بلع (بضم ففتح) كما قال الليث بن سعد ، وحمزة الاصفهاني في كتابه « التنبيه على حدوث التصحيف » ، وابن القوطية ، والازهري ، والصحاح ، ومعجم مقاييس اللغة ، واللسان ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط .

اما البلع (بضم ففتح) من الناس فهو الاكول .

بـلال (بكسر الباء)

ويطلقون على ابنائهم اسم مؤذن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وخازنه على بيت ماله ، بلال بن رباح (بفتح الراء) الحبشي ، ويفتحون باء (بلال) ، والصواب : كسرها .

ابل من دائه ، بل منه

ويخطئون من يقول : بل (بفتح فتضعيف) فلان من دائه ، ويقولون ان الصواب هو : ابل (بفتح ففتح فتضعيف) من دائه : اي : حسنت حاله بعد الهزال وصح . وقد اكتفى الثعالبي في باب الامراض والادواء من كتابه « فقه اللغة » بقوله : « اذا تكامل برء المريض فهو مبل (بضم فكسر فتضعيف) ولم يقل هو بال (بتضعيف اللام) » .

ولكـن :

يجيز استعمال الجملتين : (ابل من دائه) و (بل منه) كلتيهما : تهذيب الالفاظ لابن السكيت في (باب المرض) ومعجم مقاييس اللغة ، اللذان استشهدا بقول الشاعر :

اذا بـل من داء به ، ظن انه نجا ، وبه الداء الذي هو قاتله

(يعني الهرم) . ويجيز استعمال الجملتين ايضا : ادب الكاتب (في باب ابنية الافعال) ، والالفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمذاني (في باب القيام من الامراض) ، والصحاح الذي استشهد بقول الشاعر يصف عجوزا :

صمحمحة لا تشتكي الدهر رأسها ولـو نكزتهـا حية لأبلت

(الصمحمحة : الصلعاء) ، والمحكم ، والاساس ، والمختار ، واللسان ، والمصباح ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط .

والافعال : استبل (بتضعيف اللام) من مرضه .
وابتل ، وتبلل تحمل معنى الفعل : ابل من دائه وبل .

وفعله : بل يبل (بكسر الباء) بلا (بفتح الباء) وبللا (بفتح اللام الاولى) ، وبلولا .

التابل ، التابل (بفتح الباء وكسرها فيهما)

التابل ، التوبل ، التوابل

ابزار الطعام ، اي ما يطيب به الغذاء من الاشياء اليابسة كالفلفل والكمون وامثالهما ، يسمونها البهارات (بفتح الباء وضمها) . والصواب هو التوابل ، ومفردها :

(١) التابل (بفتح الباء) التهذيب ، والصحاح ، وابو عبيد البكري ، وابن الجواليقي ، والمختار ، واللسان ، والمصباح ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط (اقرها مجمع القاهرة) .

(٢) والتابل (بكسر الباء) : الصحاح ، والمختار ، واللسان ، والمصباح (قد تكسر الباء) ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط (اقرها مجمع القاهرة) .

(٣) والتابل (بفتح الباء) : ابن جني ، والمحكم ، واللسان ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن .

(٤) والتوبل (بفتح التاء وتسكين الواو وفتح الباء) : ابن الأعرابي ، والتهذيب ، وهامش الصحاح ، واللسان ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، والمتن ، والوسيط .

وجاء في المصباح : يقال ان التابل معرب .

ويقال منه : توبلت (بفتح فسكون ففتح) القدر ، وتبلتها (بفتح ففتح فسكون) ، وتبلتها (بفتح فتضعيف) : اذا القيت فيها التوابل .

اما بائع التوابل فيسمى التبال (بفتح فتضعيف) .

بيروت : شارع الجامعة العربية
بناية الاسكندراني رقم ٢

محمد العدناني



نعمت عامر

شواعر .. يبكين ازواجهن

بقلم نعمت عامر

* * *

احسست لاعج الحسرة بفقد القرين ، ونظمت من دموع الرثاء ما نظمت . وكنت حينما استشعر التجربة المريرة ، واحاول التعبير عنها ، اشعر بالمرارة في حلقي ، والشجى في صدري ، فكنت انقطع عن الصياغة لأهديء من توتري المشتعل ، حتى اذا سكنت بعض الشيء ، عاودت النظم لأستشعر الغصة من جديد ..

وكنت اسائل نفسي :

انا الايم الوحيدة .. تلقى   تبعات الاسى على كتفيا ؟!

مع الاعتذار للاخطل الصغير عما احدثته في بيته البليغ من تعديل .. ليوافق مقتضى الحال ...

فمد ودعته ما لي كاني   عميت ، فلا ارى .. الا ضياه
وانظر : اينما يممت طرفي   فطرفي ، لا يرى احدا سواه
يصور لي من الظلمات وجها   فيجلوها .. ويبدو لي سناه
تلاشى النور عما كان حولي   وفارق كل ما حولي بهاه
وهانذا ، وآمالي : دموع   غزار ، لا تفوه بها شفاه

وقد علقت هذه الابيات بالذاكرة ، ولا ادري من هو قائلها . وهي ترجمان ما اعاني بعد فقد الزوج الحبيب .. واظنها لشاعر الماني ، ترجمت عنه .

وقد كنت استكثر من قبل قول المرحوم الدكتور زكي مبارك في (العشاق الثلاثة) :

« اين الرجل الذي لا يروعه دخول ارمان في قبر مرجريت ؟

اين الرجل الذي لا يهوله ما حدث ابن حزم عن العقيلة التي قضت الليل في حضن زوجها الميت ، لتذوق مرارة الالم لآخر العهد بالوصال ! » .

وعندما اصبحت يدي في النار ، علمت كيف تكون الفجيعة ..

وقلت : أطالع صفحات الادب العربي ، لأستمع الى زميلات شواعر ، ووجهن بما ووجهت به من فقد القرين .. ووا حر قلبي حين رايت المأساة عامة ، والمحنة مشتركة : اشهد لقد كنت اقطع القراءة لأهديء من لوعة نفسي ، كما كنت اقطع النظم لأسكن من عواصف انفعالاتي .

ان الاحساس الصادق اذا صادف من مرت بتجربة من هذا النوع يشتعل كأعنف الاعاصير .. رباه ! هل قدر علي ان استجير من الرمضاء بالنار ؟!

على ان الباكيات — فيما قرات — صنوف والوان : فمنهن الذاهلة التي ترصد مشاعرها الهائجة تحت وقدة الحزن ، دون اكتراث .. ومنهن التي تحاول التمقل لتبدو هادئة رزينة .. ولعل لها حواسد ، ترى الا تبعث شماتتهن باظهار الشجن المذيب .

ومنهن ذات التحليل الدقيق ، التي تبدأ بالخاطرة العابرة ، لتتجاوزها الى ما يلي السطح من الثوران ! ليس ذلك فقط في رثاء المراة لزوجها الحبيب ، بل في اكثر ما قراته من دموع ذرفتها حواء على الاب والابن والاخ ! وليس المجال مجال استيعاب وتمحيص لجميع ما قيل ؛ بل المجال مقصور على مراثي الازواج ! واي عزيز هو الزوج !

لقد وقفت عند الشاعرة (صفية الباهلية) طويلا . في رثائها الدامع لزوجها ، فماذا وجدت ؟

لقد وجدت الشاعرة التي لا تسجل خواطرها سافرة كما تجيء ، بل تختار لها ابهى حلل الجمال ، من صور الخيال ! لقد وجدت نفسها وحيدة بعد قرينها الذي اخنى عليه ريب المنون ! فانتقل خاطرها الى مشهدين رائعين ؛ مشهد غصنين ناضرين جميلين في دوحة زاهية فينانة : بسقا وامتدا واستنضرا الثمر ، وزها الورق ، حتى اذا ملآ العيون جمالا ومتعة وبهجة ، سقط غصن منهما مفارقا اخاه ! ويا لوحشة الباقي بعد فراق الماضي !

اما المشهد الآخر : فمشهد الاسرة برمتها حين غاب عائلها !

اتدري كيف صورت الشاعرة هذا المشهد ؟ لقد صورته بمشهد ليل يزدهي بقمره ونجومه ! ثم هوى القمر فجاة : تاركا اسداف الظلام عن شمال ويمين !

اذا عرفت ذلك كله ، فاستمع الى (صفية الباهلية) ، في رثائها زوجها الحبيب :

عشنا جميعا ، كغصني بانة سمقا … حينا على خير ما تنمو به الشجر
حتى اذا قيل قد طابت فروعهما … وطال قنواهما واستنضر الثمر
اخنى على واحدي ريب الزمان وما … يبقي الزمان على شيء ولا يذر
كنا كانجم ليل ، بيننا قمر … يجلو الدجى ، فهوى من بينا القمر
فاذهب وحيدا على ما كان من اثر … فقد ذهبت ، وانت السمع والبصر

اما الصراع المدمر الذي يزلزل اعلى الجبال . فهو ما تعرضت له (جليلة بنت مرة) حين اغتال اخوها (جساس) زوجها الحبيب (كليبا) سيد بني ربيعة ، واي زوج كان كليب ؟ كان زين الشباب في جراته وبسالته ، وكرمه وشبابه ؟ وكان سيد العرب في مجده ، وجليلة الزوجة المفتان صاحبة امره ، ومثوى هواه وموضع نجواه ! لقد خطفه الموت اغتيالا على يد شقيقها جساس !

لقد صارت النكبة نكبتين ! ثم ها هي تلتفت في اسرة زوجها فتجد الحاقدات الشامتات يكلن لها السباب ، وكانها عدوة الراحل الصريع ، وما اصيبت واحدة منهن بافجع مما اصيبت وحدها به ! وتمد عينها للمستقبل القريب فتشهد صورة جساس وقد لقي مصرعه انتقاما وتشفيا ، وهو ملاذ العائلة الاخرى التي ستنتقل اليها مكرهة ! .. اي امواج من الحسرة تعصف بكيانها الرقيق ! وقد وجدت اللائمات يسلقنها بألسنة حداد ، ورات بيتها العريق الماضي يهدم ! لينهدم بعده بيتها الجديد ، حين يصرع جساس !

لااظن انثى وقفت هذا الموقف من قبل الا في ابعاد مترامية من السنين ! فقد يموت الزوج وتثكله الزوجة ، اما ان يموت الزوج بيد الاخ ، ثم يموت الاخ قصاصا لما اجرم ، فمن افجع ما يرمي به الزمن على راس حواء !

ولم تكن جليلة في حاجة الى صورة فنية تصور اشجانها في ظلال الاستعارة والتشبيه ، لان الواقع اقوى من كل خيال ، فلتكتف حينئذ بالواقع حين تقول :

جل عندي فعل جساس فيا … حسرتي عما انجلى او ينجلي
يا قتيلا قوض الدهر به … سقف بيتي جميعا ، من عل
هدم البيت الذي استحدثته … وانثنى .. في هدم بيتي الاول
يا نسائي دونكن اليوم قد … خصني الدهر برزء معضل
خصني قتل كليب بلظى … من ورائي ، ولظى مستقبل
يشتفي المدرك بالثار وفي … دركي ثاري ثكل المثكل
انني قاتلة مقتولة … ولعل الله ان يرتاح لي

اي لعل الله يختارها لجواره ..

ونترك جليلة ذات المصيبتين الى اخرى ذات مصيبة واحدة ، وهي فتاة انصارية تزوجت مالك بن عمر الغساني ، ثم مات فجاة في معركة خسرها : وذهلت لدى الفاجعة ذهول التي لا تحس ولا ترى ، وكانها شبح يتحرك ، لا عقل لها يفكر : وراى اهلها بعد ان تطاول عليها الامد قرابة عامين ، ان تتزوج بسيد آخر ، فقد تسلو ويرجع صوابها ، وكانها ليلة الزفاف قد استرجعت رشادها فجاة .. فصرخت في العرس صرخات مفزعة : وصاحت وهي كانها تولول لاطمة نادبة :

يقول رجال زوجوها لعلها … تفيق وترضى بعده بحليل
فاضمرت في النفس الذي ليس بعده … رجاء لها ، والصدق اشرف قيل
ابعد ابن عمرو سيد القوم مالك … ازف لبعض الناس ؟ ضل سبيلي
وخبر في اصحابه ان مالكا … جواد بما في الرحل غير بخيل
وخبر في اصحابه ان مالكا … ثوى وتنادى صحبه برحيل
وما كان يشريني خليلي بخلة … وما كنت اشري مالكا .. بخليل

فقام الزوج الجديد راحلا ، وترك كل ما حمل من المهر والكساء !

لقد رحل الرجل حين سمع الولولة الصارخة في تكرار قولها « وخبر في اصحابه ان مالكا » وهل يطيق ان يسمع من جملوها زوجته تعدد ماثر هذا السيد الشجاع ! فهو جواد بما في الرحل ، وهو وفي لا يشرك صاحبته باخرى ! كان الزوج الجديد كريما حقا ، ولكن صاحبتنا كانت اكرم واوفى !

وهذا العلاج الذي اقترحه الاهل ، واعني به زفاف الارملة الى زوج جديد ، نجد نظيرا له في الشعر الاوربي الحديث ، اذ يقول الشاعر الارميني « هوفان تومانين » المعاصر في قصيدته (سنة الحياة) ، ما ترجمته :

انشرقين بدمع جد منهمر … يا حلوتي .. بدروب الشجو والذكر
وتصبحين مع الاشجان ممسية … وترتعين بواد .. غير ذي ثمر
.. خذي القضاء كما قد حم وامتثلي … فكل شيء جرى .. يجري على قدر

ان كان زهر سلو ، عز مطلبه … ما تنشدين ؟ .. ربيع هل ، فابتدري
او كان فرط حنين للحبيب وقد … شط المزار ، بجوف القبر ، فاصطبري
فلا النحيب بمجد .. لن يرد لنا … عهد الاحبة في ماض من العمر
وما انتفاع عيون غاض رونقها … بما تبدد من سحر ومن حور
وهل بسكب دموع فوق مقبرة … بعث لعهد الهوى .. والانس والسمر

هيهات ! هيهات ما قد راح ندركه … ما راح ادبر .. لا يلوي على اثر
هيا الى الحب في افياء ايكته … قبل المشيب .. فهذي سنة البشر
نديل دولة حب آفل غده … نعم التداوي بحب غيره .. نضر
فاستقبلي العيش والآمال صابرة … اذ لا يطاق دوام الحزن والكمد

وقد ينفع ما ورد في هذه القصيدة لدى المتصبرات المستسلمات ! وكم قد راينا من مفجوعة بحبيبها بكت ما بكت ، ومضى الليل يعقبه النهار ، حتى اندمل الجرح ، وتاقت للجديد .. ولا الومها ، فلكل ظروفها الضاغطة : وازماتها المكرهة ، ووحدتها المرغمة ، كما قد راينا في

عروسة العاصي

تيهي على الايام والحقب — صداحة يا درة العرب
صوت يجدد بالهوى نغما — ينسي المتيم غصة الكرب
آيات فن لم تزل علما — في صفحة التاريخ — والادب
دنيا من الانغام راقصة — ومفاتن تدعو الى الريب
اهدى الزمان اليك عزته — وترنح العاصي من الطرب
حتى تلوى بعد قسوته — وحنا اليك بقلبه الجدب
« ناعورتي » يا روح خاطرتي — وسطور تاريخي ومهد ابي

تجلو الهموم فلا يعاودني — من ذكرها شبح من الوصب
اشكو اليها كل لاعجة — فتبوح (انتها) بكل خبي
ابقى مع الذكرى اعانقها — فتزيل صفرة لوني الشحب
للفن لوح عبر دورتها — والشعر بعض نشيدها العذب
بين الضلوع صدى مسامعها — وبصوتها الهادي مدى العجب
هي .... الالهام ساكنة — في مهجة الشعراء والكتب
تمشي مع النسيان سابحة — ويضيع في دورانها عجبي
قعد الزمان بحصنها ففقا — في سكرة من صدرها الرحب
خلعت ستور عفافها ومضت — تهفو الى العاصي بلا سبب
ان جف شعري انت رافده — او جاد ، منك خواطر الادب

حماه — سورية — وليد حجار

الناحية المقابلة من تحدت الظروف وصارعت الازمات ، وظلت وحيدة يرافقها الحزن ، ويلازمها التذكر حتى الممات !

قال الهيثم بن عدي : كان في بني عامر بن صعصعة امراة توفي عنها زوجها ، ومضى وقت فتساءل الناس عنها ؟ ولها ابنا عم من احسن الشباب ، فقالا لابيها :

ابنتك وحيدة شابة ، والقول في مثلها يسهل وينتشر ، ونريد ان تختار احدنا ..

فاطرق والدها ، ثم استدعاها ، واخبرها بما قالا ..

فسكتت ، ثم التفتت الى ابني عمها تقول :

فان تسالاني عن هواي فانه — مضى ، وانقضى يا ايها الفتيان
واني لاستحيه ، والموت بيننا — كما كنت استحييه حين يراني
اهابك اجلالا .. وان كنت في الثرى — لوجهك يوما .. ان يسؤك مكاني

ثم انصرفت ، فيئسا منها ! وذهبا وتركاها ..

ان استعراض هذه الزفرات ، ينفس عن بخار هائج يغلي به الصدر ، فالدنيا مسرح للشجى ، وما بها الا حزين يتأسى بحزين ، اليوم او غدا ..

و لااكذب حين اقول ان للرجال في زوجاتهن الفقيدات شعرا نائحا ملتاعا ، مثل النابغين : عزيز اباظة في (انات حائرة) وعبد الرحمن صدقي في (من وحي المراة) .. ولكن شعر المراة في هذا المجال افجع وادمع ، لان الرجل كثيرا ما تلتئم جراحه ، اذ يستجيب سريعا الى منطق الواقع ، اما حواء .. اما حواء فذات احلام عريضة ممتدة ، وقد تعيش في احلامها الماضية ، وكانها في واقع مشهود !

واني لاستشعر برد الراحة اذ اقرا ما كتبت الزوجات عن اعزائهن ، وفي تراثنا الادبي نظائر رائعة لما قدمت ، وما اريد ان احصي ، فحسبي ان اختار ، على اني اذا تركت فلن اترك قول فاطمة الخزاعية في رثاء زوجها ، ويا له من تصوير بليغ ، ذي لوعة وانكسار :

قد كنت ذات حمية ما عشت لي — امشي البراز ، وكنت انت جناحي
فاليوم اخضع للذليل واتقي — منه ، وادفع ظالمي بالراح

مصر الجديدة — نعمت عامر

صوت صفعته على خدي .. ارتعبت .. تساءلت : ماذا فعلت ؟ .. هذه اول مرة يضربني ابي دون سابق انذار .. لم افعل شيئا يستحق العقاب .. لم يحدث شيء منذ جئنا بيتنا الجديد .. تبدو كأسرة سعيدة فرحة بتملك بيت .. ماذا اذن ؟ .. هل لاني لعبت بالامس مع بعض الصبية من جيراننا الجدد ؟ لم اتشاجر ليشكوني احدهم .. اذهب الى مدرستي كالمعتاد .. علاقتي بأخوي الصغيرين على ما يرام .. لم اغضب امي طيلة الايام التي تضيناها في بيتنا الجديد ...

كانت صفعة ابي قوية ابكتني ، وكانت النذير لاخي فانكمش .. ثم هرول الى امه .. امه امي ، وابوه ابي ، والبيت بيتنا .. شيده ابي ليتركه ميراثا لنا .. كان ابي يقول في الميراث قبل ذلك « اكبد واكدح لاعلمكم، بعد حصولكم على الشهادات تنتقي مأموريتي في الحياة » .. اليوم يقول « سأترك لكم بيتا » ..

كنت حريصا منذ سنواتي الاولى على العلم .. ادرس جيدا .. انجح دوما .. هل كانت صفعته لان الامتحان اقترب ويريد ان يذكرني؟ .. انني لم اقصر في القيام بواجبي ..

تركني ، تركت راسي تسقط امامي، ابتل صدر جلبابي بدموعي .. ربت اخي على ظهري وقال :

— لعله رآنا ..

قلت :

— وماذا فعلنا ؟

قال :

— الم تضع القلم داخل زجاجة الفانوس .. كاد يحترق ..

قلت :

— لكنه لم يحترق ..

يبدو ان امي كانت تستمع الى حوارنا .. جاءت وامسكت باذني قائلة :

— سيحترق في المرة القادمة ان فعلت ذلك ثانية ..

تحسست خدي بيدي .. ثم مسحت على اذني .. ثم تمت تلبية لدعوة امي للعشاء ..

* * *

كانت تريزا تسكن بجوارنا .. عرفتها دون افراد اسرتها .. همت بها ، وبشعرها الطويل المنسدل خلف ظهرها كذيل الحصان الاصيل .. كل مساء ، قبل حلول الظلام تقف بباب

اشياء في الذاكرة

بقلم جمعه محمد جمعه

بيتها واقف بباب بيتنا .. تشق الابتسامة الهواء كالشهاب .. تبدو حسن ، وايجاب احسن .. كان اكتشافي رائعا انها تلم بالقراءة والكتابة .. لعلها كانت تكبرني لانني لم ارها يوما في ذهاب او في اياب من والى المدرسة .. حلمت بلقائها في اي طريق .. صعب علي تدبير امر هذا اللقاء .. كانت تريزا اشبه بزهرة متالقة وسط حديقة جرداء يعيش الفقر آمنا في ربوعها .. لم يكن بالحي كله مدرسة واحدة ، كانت مدرستي تبعد كثيرا عن البيت .. كانت امي تقول لابي : « كنا هناك داخل المدينة اما الآن فنحن في

قصة

اطرافها .. » ويقول ابي ردا عليها : « كنا نستاجر سكنا اما الآن فالبيت ملكنا .. » ..

اشعر كل مساء بخفقان الطير الذبيح بين جوانحي .. ما ان ارى تريزا ينشد قلبي اغنية شائعة تقول « يا امه القمر ع الباب » .. رائعة تريزا .. يبدو انها الوحيدة المدللة في بيت اسرتها .. دائما نظيفة متالقة دون اخواتها .. يبدو انها لا تقوم بعمل ما في البيت .. آه .. متى يتحقق الحلم !

كلمات ساذجة ملأت بها السطور .. قلت : احبك .. اتمنى ان اراك بعيدا .. هل تحددين الموعد ؟ .. متى واين ؟ .. لو امكن فليكن يوم عطلة المدرسة .. اخذت اطوي ، واطوي في الورقة حتى صارت في حجم قطعة « اللبان » ..

وقفت بباب البيت وكانت هناك .. اشارت بيدها .. هللت بيدي ، وفي يدي الاخرى قطعة « اللبان » فهمت من اشاراتها ان اتبعها .. دخلت البيت .. ارتديت مسرعا ملابسي .. هرولت خارجا الى الاتجاه الذي انطلقت فيه .. تملكني الهوى .. رقص الطير في جنبات صدري .. لحقت بها .. هتفت قائلا :

— تريزا ..

نظرت الي مندهشة .. غطت فمها بيدها تمنع الهواء من نقل ضحكتها المجلجلة الى آذان المارة .. مستحيل ان اكون امامها وتحدثني بالاشارة .. ليست خرساء .. تلفت ابحث عن جذب منها عينيها .. رأيته يقترب .. يكبرني باعوام .. يدنو مني .. يصفعني على خدي .. يمسك بيدها ويسيران .. القى في فمي بقطعة « اللبان » .. اعود الى البيت مطاطىء الراس ..

* * *

كنت اخانه واخشاه .. اتجنب السير

حبيبتي أنت

من اين جئت بها يـا ايها .... — تكـاد رقتهـا في الكاس تعتصر
واين عـن ناظري كانت مخباة — كمـا تخبا خلـف الفيمة القمر
حتـى اطلت علـى قلبي بفتنتها — لا .... يسليه عنها لا ولا الوتر
فكان لي من هواها وهو يلهمني — شعرا تراقص في لوحاته الصور
ميلاد حب جديد قد سعدت به — في عالم الفيب قبل الآن مستتر
ما زلت اذكر والذكرى تؤرقني — ما مر ، في كل ذراتي له اثر
الليل يعلم كم من حبها سهرت — عيناي اذ في هواها لذ لي السهر
وكـم تحرقت مـن شوق يقلبني — فوق السرير على جمر فاستعر
اذا المسافات عن عيني تبعدها — فالحب يدنو بها والشوق والفكر

يا حلوتي ، حلوة الحلوات يا عمري — يـا من لها اتمنى يفتدى العمر
عهد لعينيك مـن عيني احفظه — ما عشت، انت الهوى الموعود والسمر
وانـت ملهمتي شعـرا انمقـه — يغار من لطف ما نمقته الزهر
حبيبتي انـت ، والايام شاهدة — وانت لـي قدر يـا حبذا القدر

بغداد ــ ص.ب ٦٣٤ — باقر سماكة

امام بيت اسرته .. دائما اراه وحوله الغلمان ياتمرون بامره .. امام بيت اسرته ينام كلبه الضخم .. الكلب ينفذ ما يطلب منه .. يبدو انه احس بخوفي فاخذ يضطهدني .. اذا كانت معي كرة اخذها مني ، او اي لعبة اخرى .. كنت اخاف ابي لانه امرني بعدم اللعب مع ابناء الحي .. لو شكوت اليه نصيبي علقة ساخنة .. وغريمي لن يناله شيء .. احتملت الكثير من ايذائه ..

عقدت العزم على تحين فرصة .. اريده وحده دون الغلمان ، ودون الكلب المتوحش .. رغم جسده الذي يفوق جسدي ، وقوته البادية التي جعلت منه زعيما للغلمان .. كان عزمي اكيدا فقد احتملت الكثير ، ولتكن معركة بيني وبينه .. ثم بين اسرتي واسرتنه .. والنتيجة .. سيكف حتما عن التحرش بي ، واضطهادي ، وايذائي ..

يبدو ان اعداء الكلب كثرة .. لقد دس مجهول له السم فمات .. انزاح عن كاهلي نصف المهمة .. بدا الغلمان ينفضون عنه ، وجاء اليوم الذي تمنيته ..

كنت اسير غير هياب امام بيت اسرته .. رايته جالسا .. اخذت اضرب كرتي بالارض : واتلقاها بيدي .. نهض واقفا ، وضع يديه متشابكتين فوق راسه .. اسقطها ثانية واشار الي باحداها ان امثل امامه كالمعتاد .. دنوت منه وكلي تاهب .. اما غالب واما مغلوب .. طلب مني الكرة .. اجتمعت قوة ضعفي في يدي .. طرقعت الصفعة في الهواء بعد اصطدامها بوجهه .. صرخ وهو يخر على الارض :

ــ عيني يا ابن ... عيني آه يا عيني ..

هرولت الى البيت .. قذفت بالكرة فوق الدولاب .. امسكت بكتاب وجلست متصنعا الاستذكار ..

قالت امي مستغربة :

ــ هل جاء ابوك ؟

قلت :

ــ لا ادري ..

اختفيت بالبيت عدة ايام .. ثم خرجت اتشمم الاخبار .. التف الغلمان حولي واحتفوا بي .. وتهيأ لي مكان الزعامة عليهم ..

القاهرة — جمعه محمد جمعه

التجوال في الضباب

*

عبر رياح الرعب ودوامات الصور السوداء
الشيء الهادىء يسترخي في الظل
فوق بقايا مرعى
العسل البري يسيل
احجار القبز تطير
شاحبة تحت عيون القمر الوحشيه
والطير يصيح
اليوم حصاد تم

آه عبر ضباب العقل وموسيقى الخوف
عبر خطوط غائبة الشكل كعش الغرباء
جاء شتاء همجي
والزائر لحن ممتد

ارواح دون غلاف
تمتزج الاشباح مع الاجساد
يتمزق لون الازهار
اربا اربا
ويصير الوحل الابدي
فأكون النغم المرتد

الموج زجاج يعكس صمت ظلال ..
وامان نامت
عبر خسوف الكون
كالزمن .. الحب .. الكلمات
انفاس المطر المكسور
ومرايا الاعين
حلقات حصار

تنزلق اللوحة والالوان
قلبي .. نجم يتسامى
عبر شعاع يمتلك الاكوان
عبر نوافذه اطيار تنزف

لست وحيدا
روحي تتشابه بي

نتعرى في ضوضاء الشمس المرتقبة
نسطع فوق الازهار وخارج هاوية الانسان
في شط الذاكرة المحسوسة والافق الراهب
يتضاعف ضوئي

آه يا وحش الليل وعش البللور
عطشى اسراب طيور تتعالى
لا أيك يعرف أيكا
شجرات منفردة
عبر مساء ممتد فوق حراب النار
يبعدنا كون يتخضب في الدم
نتارجح في ايقاع الشذرات
وتكبلنا الانداء المحمومة
وشذى يتسلل في الجرح يعذب
آه نلقي بكيانينا في بحر لامتناهي

امشي في قاع البحر
اتوارى عن اشباح ضباب
اشباح في داخل اشباح
البحر ضباب
السر هو السر
الرؤية برهة
آه اغرق منذ بعيد
عبر سلام ملعون

في لحظة ضوء
النحات الاعظم
ينحت تمثالين لنا تحت الارض
نتكلل بالصدق وعمق الرؤية
نتطهر في ثوبين شفيفين
يتوحد عمقانا
ونعود ملاكين
آه انتظر اللحظة
دون اللحظة لا شيء

القاهرة — عبد الشافي داود



عيسى فتوح

المعلم داود قسطنطين الخوري

١٨٦٠ – ١٩٣٩

بقلم عيسى فتوح

* * *

لن اتحدث عن داود قسطنطين الخوري معلماً ، تخرج على يديه عدد كبير من ابناء حمص وشعرائها في الوطن والمهجر ، ولن اتحدث عنه شاعراً نظم كثيراً من القصائد الحكمية والقصصية ، وعالماً بالرياضيات والطبيعيات ، ولن اتحدث عنه وطنياً حراً ناهض الاستبداد التركي ، وكانت له علاقات وثيقة بجمعية « الاصلاح العربي » التي كان من زعمائها عبد الحميد الزهراوي ، ورفيق رزق سلوم ، ونجا من مشانق جمال باشا بفضل ما كان يتحلى به من رزانة وحكمة وبعد نظر ، ولن اتحدث عنه صحفياً أدار جريدة « حمص » وحرر فيها منذ تأسيسها عام ١٩٠٩ الى ان توقفت موقتاً سنة ١٩١٤ بسبب دخول تركيا الحرب العالمية الاولى ، ولن اتحدث عنه مترجماً اجاد اليونانية والتركية والم بالفارسية ، بل سأتحدث عنه مؤلفاً مسرحياً وفناناً ذا اذن موسيقية مرهفة ، اذا سمع لحناً عمد إلى تصويره في منظومة رقيقة ، وواحداً من ابرز تلامذة(١) الشيخ احمد ابي خليل القباني ، الرائد المسرحي الاول في سورية ومصر .

تعرف داود قسطنطين الخوري بأبي خليل القباني يوم كان موظفاً في حكومة دمشق ، عن طريق الوالي مدحت باشا الذي دعا الى اقامة نهضة مسرحية ، بعدما رأى كثرة المقاهي التي تمثل فيها حكايات (قره كوز) فانتقد وجهاء دمشق على هذا المستوى المنحط ، ولامهم لاقبالهم على مشاهدة مناظر مخجلة ، واستماع الفاظ بذيئة ، ولما سألهم الا يوجد من يستطيع اقامة مسرح تمثل فيه الروايات الادبية ؛ دلوه على ابي خليل القباني الذي كان يقوم يومئذ بتمثيل بعض الروايات في سهرات خاصة مع فريق من اصحابه في بيوت دمشق .

منذ ذلك اليوم صار داود قسطنطين الخوري لا يفارق ابا خليل ، يلازمه كظله ، يؤلف الاشعار ويلحنها لرواياته ، بما اوتي من موهبة موسيقية لا تقل عن موهبة ابي خليل ، وصوت رخيم عذب ، وحنجرة صافية ، واحساس دقيق بالنغم ، فكتب خلال وجوده موظفاً في دمشق عدة مسرحيات نالت اعجاب الجمهور بمغزاها ومعناها ، كما اشترك مع المعلم يوسف شاهين بتأليف مسرحيتين اخريين هما « يهوديت » و « سميراميس » ، وكانت اناشيدهما والحانهما من وضع داود الخوري وتلحينه .

لم يصلنا من تراث الخوري الا خمس مسرحيات عثر عليها الاستاذ شاكر مصطفى عند ابنائه في البرازيل ، وهي : « مثال العفاف في رواية الامرة جنفياف » و « الصدف المدهشة » و « اليتيمة المنكوبة » و « عمر بن الخطاب والعجوز » و « الابن الضال » وطبعها ضمن آثاره الكاملة ، اما مسرحياته « جابر عثرات الكرام » و « الساري الشفيق » و « العذارى العشر » فلم نقف على اثر لها ، ويبدو انها ضاعت في جملة ما ضاع من آثاره ، اثناء تنقلاته بين دمشق وحمص والبرازيل ، ويذكر المؤرخ ادهم الجندي(٢) انه لحن اناشيد رواية « كورش » وهي المسرحية الوحيدة التي الفها زميله يوسف شاهين .

لم يفارق داود الخوري صديقه ابا خليل الا بعد ان قامت عليه ثورة رجال الدين اذ انكروا عليه فن (الكوميضه) الذي « تعافه النفوس الابية ، وتراه على الناس خطباً جليلاً ، ورزءاً ثقيلاً لاستلزامه وجود القيان ، ينشدن البديع من الالحان ، بأصوات توقظ اعين الذات ، في افئدة من خضر من الفتيان والفتيات ، فيمثل على مرای من الناظرين ، ويسمع من المتفرجين ، احوال العشاق ، فتطبع في الذهن سطور الصبابة والجنون ، وتميل بالنفس الى انواع الغرام والشجون ، والتشبه بأهل الخلاعة والمجون ، فكم بسببه قامت حرب الغيرة بين العواذل والعشاق ، وكم سلب قلب عابد ، وفتن عقل ناسك ، وحل عقد زاهد » ثم هدموا واحرقوا مسرحه(٣) الذي كان قد انشأه وانفق عليه من

---

(١) كان منهم ايضاً نقولا شاهين ، وعطا الايوبي ، وعزت الاستاذ .

(٢) اعلام الادب والفن – الجزء الاول – صفحة (٢) .

(٣) استخدم ابو خليل كازينو الطليان في حي باب الجابية ، فمثل عليه مسرحيته « الشيخ وضاح ومصباح وقوت القلوب » التي اقتبسها من الف ليلة وليلة ، فادهش الجمهور ، ثم استأجر « جنينة الافندي » في حي باب توما حيث قدم للجمهور مسرحيتي «عائدة» و «الشاه محمود» ، واخيراً باع بعض املاكه واستأجر « خان الجمرك » في حي باب البريد ، وهكذا قام اول مسرح دمشقي كامل الشروط .

ماله الخاص . وباع في سبيله حصته من اراضي « جديدة عرطوز » ؛ وحصة من املاكه بدمشق ، مع القبان الذي كان يملكه ... فرحل الى مصر(٤) في حين عاد داود قسطنطين الخوري الى حمص ليتابع العمل بمفرده ، فمثل فيها اوبريت « مثال العفاف في رواية الاميرة جنفياف » عام ١٨٩٠ ، ثم مثلها هواة ومحترفون في جميع الاقطار العربية عشرات المرات ، حيث لقيت استحسانا كبيرا واقبالا منقطع النظير ، حتى نقلها تلامذته الى البرازيل ، ومثلوها عام ١٩٠٠ ، وكانت مسرحياته بالاجمال غنائية من نوع الاوبريت ، وهو اللون الذي كان شائعا في بداية عصر النهضة المسرحية ، في كل من سورية ومصر .

وبالرغم من تشتت الصديقين وافتراقهما ، فقد بقيت اواصر الود تربط بينهما ، فما ان عاد القباني الى دمشق بعد غياب ثماني سنوات تقريبا في مصر ، حتى قصد حمص مع عائلته عام ١٨٩٠ وحل فيها ضيفا كريما على اصدقائه : داود الخوري ، وعبد الهادي الوفائي ، ومحمد خالد الشلبي ؛ وكلهم من هواة الفن المسرحي ، فأقاموا له معملا لصنع النشاء ليقيه شر العوز ، ويبعد عنه شبح الفاقة ، فمكث عندهم سنة واحدة ، ثم قفل راجعا الى مصر ، بينما بقيت زوجته واولاده يديرون بعده معمل النشاء حتى سنة ١٨٩١ .

هجرته الى البرازيل

هاجر داود قسطنين الخوري الى البرازيل عام ١٩٢٦ مع باقي افراد اسرته بدعوة من ولديه الكبيرين توفيق والبرتو ، فاحتفلت الجالية السورية بقدومه احتفالا عظيما ، وانهالت عليه الطلبات من المؤسسات الخيرية والادبية في ساوباولو لاقامة الحفلات والروايات التمثيلية ، فلبى طلباتها ، ومثل روايته « اليتيمة المسكوبية » لكنه لاقى صعوبات جمة في انتقاء الممثلات وتلقينهن الادوار والالحان ، لندرة الفتيات اللواتي يتقن اللفظ العربي ، ومع ذلك فقد لقيت هذه المسرحية وغيرها من الروايات التي مثلت له هناك نجاحا كبيرا ، وتحدثت عنها الصحف العربية في المهجر باسهاب ، مثنية على جهود واضعها وبراعته في التاليف والتلحين والاخراج .

عندما رحل المعلم داود قسطنطين الخوري الى البرازيل ، حمل معه تراثه المسرحي ، وقصائده التي استطاع ان يجمعها ، فظل هذا التراث بعيدا عن انظار مؤرخي الادب ونقاده الذين كانوا يبحثون بأظافرهم عن اي مادة يضعونها اساسا لدراساتهم عن بدايات القصة والمسرح في سورية قبل قرن من الزمن . فيوم وضع الاستاذ شاكر مصطفى كتابه عن القصة في سورية لملم مادته على السحت والضياع — كما يقول — وانفق الساعات بين السلالم والرفوف المترتبة في المكتبات العتيقة ، ودور الكتب ، يبحث عن قصة ، خبر ، كلمة تمس موضوعه فلا يظفر الا بالقليل القليل . ولا سيما عن داود قسطنطين الخوري ، الى ان اصبح قنصلا لسورية في البرازيل ، وتعرف بأبنائه — وهم قمة شامخة ، ومفخرة من مفاخر الجالية السورية في المهجر — فاذا به يضع يده على هذا التراث النفيس ، ويحمله عائدا الى سورية ليطبعه ، وهو على يقين انه ظفر بغنم عظيم ... وفعلا تم له ما اراد ، وطبع هذا التراث — وان لم يكن كاملا — بالتعاون مع ابناء الخوري ووزارة الثقافة سنة ١٩٦٤ ، فجاء في خمسمائة صفحة من القطع الكبير ، وبذلك صانه من التشتت والضياع ، وكان مقدرا له — لولاه — ان يبقى مخطوطا ومدفونا في تلك الارض البعيدة عن الساحة العربية .

لقد فتح داود قسطنطين الخوري عينيه على الحياة ؛ فلم يجد حوله من آثار الثقافة الا ما في بعض الكتب الصفر ، ولا من التشخيص الا خيمة « قره كوز » ، ولا من الشعر الا ما يصنعه الفقهاء(٥) ، ولا من الغناء الا ما يمتد بين فرح وفرح من موال مكرور ، ولا من الرواية الا ما يذكره الحكواتي في غبش المقهى عن ابي زيد الهلالي ، وعنتر ، والزناتي ...

من هنا اذا تتكشف قيمة آثار قسطنطين الخوري التي كتبها وظل يكتبها اكثر من خمسين عاما ، فكان من الرواد الماهرين الذين عبدوا الطريق لهذه النهضة المسرحية التي نقطف ثمارها اليوم .

كتب الكثيرون عن ابي خليل القباني ، لكن فاتهم ان يتحدثوا عن مدرسته وتلامذته ، او يقفوا عند هذا التلميذ النابغة الذي عرفه الناس شاعرا يجيد القافية لمسرحيات القباني ويعين عليها ، ويحسن الموسيقى والالحان ، وتهتز لهاته بالغناء وللغناء .

في مسرح القباني بدمشق تذوق داود فن صاحبه القباني ، وفتحه الجديد في عالم المسرحية الغنائية التي تجمع — الشعر والغناء والرقص والقصة ، وتصفع جليد الحياة الرتيبة في ذلك المجتمع الحميدي المغلق .

ان اي دارس لفن ابي خليل القباني لا يمكنه ان يتجاهل الدور الهام الذي قام به تلميذه ورفيق جهاده المعلم داود قسطنطين الخوري ، والجهود الطيبة الصادقة التي بذلها في سبيل خلق تلك النهضة المسرحية ، رغم ما لقيه الاثنان من الاحباط والمناهضة الفكرية والاجتماعية في تلك الحقبة المظلمة من اواخر القرن التاسع عشر .

دمشق — ٤٨ قصور — كزبري   عيسى فتوح

---

(٤) وصل ابو خليل القباني الى الاسكندرية في ٢٢ تموز سنة ١٨٨٤ بدعوة من صديقه سعدالله حلابو ، التاجر السوري الغني المقيم هناك ، بعد ان شكا اليه سوء حاله ، وما آل اليه وضعه على اثر تهديم مسرحه وحرقه ، لذلك سافر حلابو الى القاهرة لمقابلة الخديوي توفيق بشأنه ، فاستدعاه على الفور ، واعطاه دار الاوبرا ليمثل فيها رواياته لمدة سنة ، كما وهبه ارضا في حي « العتبة الخضراء » لاقامة مسرح عليها ، وكانت اول مسرحية مثلها وحضرها الخديوي هي (الحاكم بامر الله) .

(٥) مقدمة شاكر مصطفى لتراث داود قسطنطين الخوري صفحة (ب) .

مـن رواد الانـدلس

مصطفى فروخ

١٩٠٢ — ١٩٥٧

بقلم الدكتور محسن جمال الدين

* * *

بعد ان قدمنا رائدا من (رواد الاندلس) مـن سلسلة دراساتنا عن (الفردوس المفقود) ، في الاديب ، العدد (١ — ١٠) — (يناير — اكتوبر ١٩٧٧) . نعود اليوم الى دراسة رائد آخر .

وهو الفنان الاديب المرحوم الاستاذ (مصطفى فروخ) ١٩٠٢ — ١٩٥٧ . الذي كان تلميذا نجيبا في مدرسة الطبيعة اللبنانية الجميلة . يوم ان كان لبنان يومذاك كل ما فيه جميل . قبل أن تمر عليه مصائب السياسة ، واحداث الحياة .

عرفته يوما ، وهو يدلف الى احدى المكتبات في ساحة المعرض ، خلال الحرب العالمية الثانية . اسمرا ، ضعيفا ، متوسط القامة ، اميل الى القصر منه الى الطول . متجعد الشعر ، له عينان كبيرتان ، يشع نور العبقرية منهما . وصوت خفيض . وقد رجوته ان يلتفت بفنه الى عالم البلاد العربية . ومنها (العراق) لما فيه من تاريخ حافل بالامجاد . فوعدني خيرا .

ولما سافرت الى (اسبانيا) بقيت اتابع ما يقال عنه ، وما ينشر حوله ، وما كان يخطه بريشته من روائع .

عاش يتيما ، وتعلم في مدرسة الايتام الاسلامية التابعة للمقاصد . ودرس الرسم على يد الفنان اللبناني الاستاذ (حبيب سرور) . وتابع دراسته في معاهد الفن في روما ، وباريس ، ومدريد . والقى محاضرات بفنه على طلبة الجامعة الامريكية في بيروت . وبعض المعاهد الرسمية اللبنانية .

ما دخلت يوما دارا للفن ، او خزانة كتب بلبنان عامة ، الا ووجدت له لوحة فنية مدهشة رائعة ! ومن هذه اللوحات لوحة مشهورة وهي (معاوية يركب البحر) . كما صور الكثير من الرسوم الفنية والتعليمية ، في كتب التاريخ ، والقراءة ، والادب ، في سلاسل دار المقاصد الاسلامية . امثال (القراءة المصورة) وغيرها .

وزين دار الكتب الوطنية اللبنانية ببعض لوحاته ، التي رسمها للاعلام اللبنانيين ، في العلم ، واللغة ، والفلسفة ، والادب ، والشعر ، والصحافة .

ولقد طاب لي ان استعرض بعض رسومه الفنية ، التي كان يغذي بها افكار المدرسين والطلبة في مدارسهم ومعاهدهم . فوجدت بانه كان يسبغ على المواضيع العلمية ، والثقافية ، والادبية ، من آيات فنه ، وجمال فكره ، ما يقرب فيه الموضوع الى اذهانهم ، ويحبب فيه الدراسة الى نفوسهم .

قال عنه الاستاذ البحاثة الدكتور يوسف اسعد داغر : « امتاز فنه بنقاء الالوان ودفئها ، وقوة الرسم والتاليف بين الموضوعات التاريخية ، والقومية ، له عناية خاصة بدراسة رسوم الطبيعة ، ونفسية الناس » .

اني لاعتبر ان له مدرسة خاصة به ، تاثر بها من بعده بعض فناني لبنان ، منهم الفنان الاستاذ الماهر (رضوان الشهال) . وسار عليها في اغلب لوحاته الفنية .

وقد كان الفنان مصطفى فروخ — رحمه الله — يهتم بابناء الشعب البائس في لوحاته ، ويرجع الى القرية الشامخة في اعالي الجبال ، ومنحدرات السهول في رسومه . فها انت تطالع موضوع (الثروة في يد العاملين) وهي تتحدث اليك واضحة صارخة عن حياة (الفلاح) اللبناني . ثم تذهب الى لوحة (الثعلب والعنب) فتعود بذاكرتك الى الاساطير والحكايات الحيوانية المستمدة مـن كتاب (كليلة ودمنة) وامثال (لا فونتين) . فتضحك مسرورا كانك تشاهد المنظر المسرحي امامك .

عاش المرحوم مصطفى فروخ بين اسرة علمية كريمة عرفنا منها الاستاذ الجليل الدكتور عمر فروخ عضو المجامع العربية . والاستاذ الشاعر حسن فروخ وغيرهما .

عاش (فروخ) زاهدا في المظاهر ، وقانعا بالقليل ، في صومعة فنه ، وفي زاوية عبقريته . في حين ان بعض لوحاته قد زينت بها بعض المتاحف الاوروبية . وقد جمع فيها بين روح الفن الشرقي ، والوان الطبيعة البسيطة ، وابعاد الهندسة المتكاملة في مدارس الرسم للفن الاوربي الغربي .

وهو لما عاد الى وطنه لبنان بعد دراسته باوروبا ، استطاع ان يشد اليه أهل الفن ، واصحاب القلم ، وناشري الكتب . وقلما تجد كتابا يصدر في بيروت ، او مجلة تخرج في محيطه وايامه ، الا وتتزين بعض دراساتها ، او صفحاتها ، او غلفتها بريشة (فروخ) . ذلك الفنان المبدع البارع ، الذي يقرب اليك الفكرة الضاحكة او الباكية ، أحسن تقريب . ويجعلك تنبهر بالوانه واصباغه الزاهية . حتى كانك تقرا اللوحة التي رسمها ، وتنزل الى اعماق اسرارها ، دون حاجة الى الرجوع لقراءة الدراسة ، او

المقالة . او القصة . او القصيدة . التي نشرت بين يديك .

وكان (فروخ) مع زميليه (قيصر الجميل) و (رافت البحيري) فرسانا ثلاثة ، في ساحة الفن العربي اللبناني . وكل واحد منهم يختلف في اهدافه ، واتجاهاته الفكرية ، والفنية .

رحلته الى (بلاد المجد المفقود) : صدر له في سنة ١٩٣٣ بدار مطبعة (الكشاف) ببيروت ، كتاب صغير الحجم ، مزين بالتصاوير الرائعة ، مع مقدمة للاستاذ المرحوم عمر فاخوري جاء فيها :

« قد امحت تلك المدنية الزاهرة ، وتلاشى ما كان فيها من عز وسلطان ، وجيوش لجبة ، ولم يبق منها سوى آثار صاغها الفن ، فجعل منها خطباء تشيد دوما بعزها التليد » .

ومنها :

« ان الفن مع لطفه جبار ، لانه خالد ، والخلود من شان الجبابرة والعظماء ، والامة التي تترك فنا باهرا هي امة خالدة لا تموت » .

محتويات الرحلة : نجمل الآن محتويات (رحلته) ثم ناتي بنماذج منها :

١ — تكلم فيها عن الاندلس — بلاد الوحي والفن والجمال .

٢ — قيام الفن العربي — الاسلامي في الاندلس وروعته .

٣ — اقسام هذا الفن ، وادواره الثلاثة :

أ — دور النهضة .

ب — دور الانتقال .

ج — دور السقوط .

ومن مظاهر دور النهضة — بناء (جامع قرطبة) الذي اشاده الامير (عبد الرحمن الداخل) .

ومن مظاهر دور الانتقال — بناء قصر (الزهراء) في قرطبة ، و (القصر) في اشبيلية .

ومن مظاهر دور السقوط — تظهر لنا قصور الحمراء في غرناطة ، وتخلي العرب عنها سنة ١٤٩٢ م .

٤ — حديثه عن بداية رحلته في القطار من (مدريد) الى (الاندلس) . وابتهاره بما رآه من سهول ، وجبال ، واودية ، وتربة ، وزروع ، ذكرته بالشرق عامة ، وببلاده خاصة .

٥ — سماعه عن العادات العربية الاسلامية في اسبانيا . وهي من بقايا العرب هناك . حتى في القيام بمراسيم الصلاة .

٦ — استشهاده بقول الكاتب الفرنسي الاديب ، (كلود فارير) عن الاندلس ، وحضارة العرب فيها .

٧ — حديثه عن منازل العرب المشارقة في الاندلس واماكن وجودهم ، من سوريين ، ومصريين ، وفلسطينيين ، ويمانيين ، وعراقيين .

٨ — حديثه عن البيوت والدور ذات الازاهير والرياحين .

٩ — حديثه عن النساء الاندلسيات وجمالهن الساحر ، وسمرتهن المحببة ، ومراوحهن المنشورة ، وزينتهن المعطرة .

١٠ — حديثه وهو مبهور امام جامع قرطبة ، وايام العز في عصر عبد الرحمن الناصر ، وتسميته باسم (ميسين) الروماني ، حامي الاداب والفنون في عصره .

١١ — وصفه للمسجد الجامع في قرطبة ، وحسرته على ما وصل اليه ايام زيارته لاسبانيا .

١٢ — حديثه بلغة (الفن) لا بلغة (التاريخ) لما شاهده ولمسه بيده .

١٣ — وصفه للشعب الاسباني اثناء زيارته لبلاده ، وكيف ان الفقر والكسل ، قد غلب عليه ، مع طيبة قلبه ، وشهامة رجاله . مع كثرة الشحاذين والمتسولين والمغنين فيه .

١٤ — حب الشعب الاسباني للفن والغناء ، الذي يشبه اللحن (البغدادي) و (الغناء الشامي) .

١٥ — زيارته لآثار (الزهراء) المخربة ، واطلالها المندثرة . وعدم عثوره على بقاياها . وكيف ان احد الرهبان قد عثر على آثار نفيسة جدا منها ، من تماثيل ، وطيور ، واشخاص .

١٦ — زيارته الى (اشبلية) مدينة الطرب ، ووصفه لجمال المدينة ، وطابعها العربي القديم ، وحديثه عن حسن الاشبليات ودلالهن ، وحب سكانها للهو والطرب والموسيقى .

١٧ — زيارته الى كنيسة المدينة العظمى ، وحديثه عن (الخيرالدا) التي بناها المنصور الوحدي عام ١١٩٥ م . وقيام تمثال (الايمان) في اعلاها . ورؤياه لمدفن العظماء في (اشبلية) . الذين جاءوا بالنصر ، والمال ، والشهرة ، لاسبانيا .

١٨ — زيارته (لدار العذارى) في اشبلية ، تلك الدار التي كان يقال بان الملوك فيها كانوا يستعرضون

كل عام مائة عذراء تقدم هدية لهم .

١٩ — حديثه عن طبيعة الشعب الاسباني الاجتماعية ، في حبه للغرباء ، واكرامه للنزلاء ، وملاطفته للزوار الوافدين لبلاده .

٢٠ — حسراته ، وآلامه ، على حالة الآثار العربية الاسلامية ، وما آلت اليه يوم ان زار الاندلس في جولته الفنية الرائعة .

٢١ — العودة الى التاريخ لوصف الاندلس . وما قاله (طارق بن زياد) للخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك ، بعد الفتح العربي سنة ٧١٢ م.

٢٢ — حديث الفنان (فروخ) عن الحمراء في (غرناطة) وسورها ، وتصورها ، وجنة العريف فيها .

٢٣ — رؤياه للجرس الكبير عند مدخل (قصور الحمراء) .. وما ارخ تحته لليوم الثاني من كانون الثاني لعام الف واربعمائة واثنين وتسعين (٢ كانون الثاني ١٤٩٢ م) . وكيف ان هذا الجرس ظل معلقا ، وفي كل عام يدق بذلك التاريخ اربعا وعشرين ساعة ، متوالية ، ليدل على ذكرى افتتاح الاسبان لغرناطة ، واسقاطهم للحكم العربي هناك .

٢٤ — حديثه بألم عن ذكريات الاندلس وآثارها : ورؤياه للسهول المنبسطة ، والهضبة المعروفة باسم (زفرة المغربي) التي تشير الى وداع غرناطة . يوم تركها مستسلما حزينا آخر سلاطينها (ابو عبدالله الصغير) .

هذا اهم ما جاء في هذه الرحلة الممتعة التي تعيد اليوم ذكرى صاحبها . اما اسلوبها فهو اسلوب الفنان الرسام المصور ، الذي يبهره الفن ، ويقف امامه بخشوع ، متدلها بحبه ، غارقا بأفكاره ، وسابحا في تأملاته .

نماذج من كتابات الرحلة : هذه بعض النماذج من كتابات الرحلة المسماة (رحلة الى بلاد المجد المفقود) للاستاذ المرحوم مصطفى فروخ . وقد جعلنا لهذه المقتطفات عناوين جديدة .

جمال الاندلس : هي بلاد الوحي والفن والجمال . نزل بها العرب فأوحت اليهم ، ماؤها ، وارضها ، وسماؤها . فنونا عالية مهرها الخلود بخاتمه ، والبسها منذ ظهورها حلة من الروعة والجمال لا تبلى . من شعر كأنه قطع الوشي ، او اغاني الملائك ، او ترديد المنشدين ، وبناء جمع الضخامة والدقة والتناسق . فجاء آية من آيات الفن وفتنة للناظرين . وتصوير تخال الحياة تدب فيه دبيبا . ونقش كأنما الاصابع التي اشتغلت به لم تكن اصابع بشر ، بل اصابع مبدعين .

جلاء العرب وآثارهم الناطقة : ان العرب قد جلوا عن اسبانيا ، غير انهم خلفوا فيها مدينة زاهرة . وآثارا ناطقة على مر السنين ، ومدينة واضحة كنور الشمس قوة ، وبهاء ، فتنشر شعاعها دوما على العالمين .

من مدريد الى الاندلس : في عيد السرور سار القطار ، يشق حجب الظلام ، سار تحيطه افراحي ، وتطوف به مسراتي ، وترقص امامه نفسي ، وقد سبقته احلامي نحو الاندلس .

عادات اسلامية عربية : ومن اغرب ما سمعته هناك ان العادات الاسلامية اثرت في نفوس اهل تلك البلاد لدرجة انه توجد للآن طائفة منهم تمارس صلاتها في احدى الكنائس بشكل صلاة المسلمين تماما منهم يسجدون على الارض ويرفعون ايديهم نحو السماء ، الى ما هنالك من العادات الاسلامية .

بلاد الاندلس مدفن المدنية: اتجهت نحو النافذة متنشقا نسيم (قرطبة) وبلاد الاندلس مدفن المدنية . اجل انني ازور ارض المجد المندثر فلعل في زيارة الاموات عبرة للاحياء . بل ربما كان سكون الاموات ادعى للعبرة والتفكير من كلام الاحياء الاموات ورب نظرة حكيمة خير من حديث طنان الى بلاد الاندلس ، الى بلاد المجد المفقود .

رحيل العرب ، رحيل النعم : لقد اتفق اعظم المؤرخين ومنهم اهل الاندلس على القول انه منذ رحل العرب عن بلادهم رحلت معهم النعم والازدهار ، وحل مكانها البؤس والدمار . واستشهد بقول الكاتب الفرنسي (كلود فارير) القائل :

« اننا نأسف لحضارة العرب الضائعة ، وان رجال الاسبان الذين بلغوا من البطش اكثر مما بلغ العرب من الحكمة والادارة حالوا دون تلك الحضارة الحقيقية واوربا ودفعوها بعيدا عنها قياس ما فعلوا » .

نساء اندلسيات جميلات : ولكن ننظر قليلا الى تلك النساء الجميلات ذوات البشرة السمراء ، وقد جلسن امام باب الدار ينظرن الى المارة بعيونهن الكحلاء ، وقد هذبن شعرهن الفاحم كعيونهن الناعسة ، وزينه بباقة من الياسمين ملا عبيره جو البلد ، وعلى رأسهن مشط كبير ثم ارسلن فوقه وشاحا ابيض مزركشا تدلى على الاكتاف . اما على الصدر على مقربة من النهد فقد برزت فلة فياحة ، وفي اليد مروحة عظيمة تطرد بها الحر بكسل ودلال .

وصف جامع قرطبة : دخلت الجامع فاذا انا في غابة من المرمر ضمت ما يربو على الف عمود من مختلف الالوان والاجناس علتها حنايا مزدوجة ، ونهضت فوقها قباب فيحاء واسعة الارجاء .

روعة المحراب : وهذا المحراب اليس هو تحفة وفتنة ؟ رسوم وازهار لطيفة ، واغصان رقيقة ناعمة ،

ونماذج مبتكرة غشيت بالذهب ، واكتست حواشيها بالاحجار الكريمة ، والالوان الحية النيرة ، فاذا هي رائعة مدهشة .

ظلام وشموع : اظلمت جوانبه ، وخبت انواره ، واقفرت نواحيه ، وهناك في بعض زواياه الحالكة بدت بعض الشموع شاحبة كنفس امضها الداء فهي في حشرجة الموت ، هي كنزاع الفن الجميل النائس في قلب هذا المكان ، وقد سالت من تلك الشموع بعض فضلات هي اشبه بعبرات الثكلى . وانتشر دخان امتزج مع زفرات الشموع . وبدت هناك بعيدا بعض اشباح قاتمة ، فتكون من ذلك منظر رعب كله حزن وكآبة . تقل كل ما كان فيه من الوان وانوار وجمال .

شارلكان والجامع : قال (شارلكان) يوم ان هدموا قسما من جامع قرطبة ، وبنوا محله : لقد بنيتم اشياء عادية مبتذلة . ملأت كل مكان ، وهدمتم تحفة بل عجيبة من عجائب الدنيا التي لم يسمح بمثلها الزمن .

احتجاج بلدية قرطبة : ولا يزال احتجاج بلدية قرطبة الذي قدمته يومئذ دفاعا عن الجامع محفوظا لليوم ، ولكن الجهل قوة عمياء .

المراة الاشبلية : والاشبلية اكثر دلالا واناقة من سواها من النساء الاندلسيات . كذلك أهل اشبلية امتازوا بحبهم حياة اللهو والسرور ولهم ولع بالطرب والضرب على الآلات الموسيقية ويظهر ان هذا الميل متأصل فيهم منذ القدم .

الفن في المدن الاندلسية : ولا شك انه فن يمثل التطور الاخلاقي عند العرب في الاندلس . بينما نرى فن (قرطبة) ينم عن رصانة وكثير من الورع والحذر بخطوطه الجامدة ، واقواسه الضخمة ، ونقوشه الهادئة . دليل حياة الجد والعمل . نرى فن (اشبلية) يميل الى الرقة والشعر والترف بما تبديه لنا خطوطه المتعرجة فوق الاقواس والابواب فانها تظهر متحركة ضاحكة يكاد لا يوجد بينها خط مستقيم ، وجدرانها كانها مخرمة او مكسوة بدقيق النقش !

بدائع الحمراء : ان (الحمراء) اروع تحفة فنية بنيت في اجمل موقع تجمعت الجمال والكمال ، ولذلك فهي فريدة نادرة ، تمركزت على قمة الهضبة فاشرفت على غرناطة وسهولها الشاسعة . تظهر للناظر كأنها تاج ذهبي على مفرق حسناء . تنتهي قمته بزرقة السماء ، ويغوص اسفله بخضرة خضبة بالغة . الحمراء هي : سور ، وقلعة ، وقصر ! .

وهكذا يستمر الفنان الاديب مصطفى فروخ . في تأملاته ، كأنها تأملات العابد في محراب الفن ، والزاهد في صومعة الوحي .

وقد ابدى التفاتات فنية رائعة لم يستطع غيره ممن سبقه من اصحاب الرحلات العربية الى الاندلس ، او الذين جاءوا بعده ان يتغلغلوا مثله في اعماق الفن الاندلسي المتمثل في الصور ، والرسوم ، والبناء ، والهندسة ، والدور ، والقصور ، والمساجد ، والمعابد ، والقلاع . وأبقى مع وصفه الادبي لوحات بريشته عن مشاهداته ، ورؤياه للفن العربي وآثاره في تلك البلاد الخالدة التي اسماها ببلاد المجد المفقود ، قياسا على كلمة (شيخ العروبة) القائلة عن الاندلس باسم الفردوس المفقود !

وكم لهاتين الجملتين من معان سامية ، وذكريات مثيرة ، واحلام جميلة ، وعبر نافعة . لو كنا نتعض بها ، او نستفيد منها ، او نعمل لعدم نسيانها ، او اعادة مأساتها .

اما الملاحظ على هذه الرحلة ، فهو ان مؤلفها — لم يزر من الاندلس — كما يبدو الا بعض مدنها الكبيرة ، قرطبة ، اشبلية ، غرناطة . ولم يذهب الى قرى تلك البلاد ، ومدنها الجنوبية الاخرى ذات الآثار العربية والاسلامية .

كما يبدو على قلمه جانب الاندفاع العاطفي ، والأحكام العابرة احيانا . وذلك طبيعي لقصر المدة الزمنية التي قضاها في (اسبانيا) لمعايشة القوم في (الاندلس) . ولما يشعر به الشرقي العربي من مشاعر لاهبة عند رؤياه لتلك المعالم والآثار العظيمة الشامخة ، التي خلفها العرب وراءهم يوم ان غادروا فردوسهم المفقود .

اهم المصادر :

١ — رحلة الى بلاد المجد المفقود — لمصطفى فروخ — مطبعة الكشاف — بيروت ١٩٣٢ .

٢ — مصادر الدراسة الادبية — ليوسف اسعد داغر — ج/٢ — بيروت ١٩٧٢ .

٣ — الآثار الاندلسية الباقية — لمحمد عبدالله عنان — القاهرة ١٩٥٦ .

٤ — معجم المؤلفين — لعمر رضا كحالة — دمشق ١٩٥٨ .

٥ — القراءة المصورة — لجماعة من الاساتذة — ج/٢ بيروت ١٩٢٥ .

محسن جمال الدين

جامعة بغداد — كلية الآداب

لك في عيد النور

احببتك ... لست فتى يلهو
ـ يا ذات العينين اللاهيتين
باسرار الشجن المزهر في الجنة
فوق جباه الحور العين ـ .

بالامس ...
نظمت عقودا
وقصائد من زهر اللوز
فزهر اللوز قناديل الحب
تنير مساء العشاق
ودرب العين بضيعتنا
يشتاق اليك الحب بضيعتنا ... وانا .

بالامس ...
وقلت اعلقها في جيد حبيبتي....
عفوا ، اقسم :
قبلك ما احببت .
وبعدك .. ، لا اعلم ،
بعدك هل سيظل الحب ؟
انت اذن ،
لك صنعت عقودا وقصائد
من زهر اللوز
يا من في شفتيك البسمة اندى
وورود العمر الطفل بخديك
تضج وتزهو

احببتك ...
فوق جبينك افق سنابل ،
ـ ها اني اصبح عرافا
في حبك اصبح عرافا
ما أسعد عراف الحب ! ـ
فوق جبينك افق سنابل
احداها مثلك فاتنة
تبدو ما قبل العشرين
قد يهجم موسم خطبتها
وتظل تعيش العشرين !
ما اجهل من خال العمر مراحل
او شيبا وركام سنين !
يا ذات العينين اللاهيتين
باسرار الشجن المزهر في الجنة
فوق جباه الحور العين
احببتك ... لست فتى يلهو ...

محمد نيب
باطر ـ لبنان

النوروز عيد الحرية

بقلم زياد الاحدب

* * *

في اليوم العشرين من شهر آذار (مارس) من كل عام ، يبدو على ابناء عدد من شعوب الشرق نشاط دائب وهم يتهيأون ويعدون كل ما يلزم للخروج مع صبح اليوم التالي الى ظواهر المدن حيث يتخفون بياض النهار في احضان الطبيعة .

انه نوروز وهذه لفظة فارسية تعني (اليوم الجديد) اي عيد راس السنة ويلفظه الاكراد « نيروز » وكذلك ورد في شعر العرب ، قال البحتري :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا — من الحسن حتى كاد ان يتكلما
وقد نبه النيروز في غسق الدجى — اوائل ورد كن بالامس نوما

النوروز عند العرب

عندما دكت جموع الفاتحين اسوار الاستقلال الحضاري التي كانت لا تزال قائمة بين العرب والامم المجاورة اصبح من المالوف ان نجد العربي يقبس من الفارسي والفارسي من العربي ، سواء كان ذلك اسلوب حرب او عادة معاش او نظام ادارة او براعة فن .

وبالرغم من ان الامويين لم يتعمدوا التأثر بالاعياد الفارسية ، فانها اخذت تتسرب الى العرب دون استئذان ، واتباعا لسنن التبادل الحضاري كان الامر بطيئا في البداية لكنه في العصر العباسي اصبح ظاهرا لا يدع اي مجال للتغاضي او الانكار .

يحكى ان بعضهم قدم لسيدنا علي كرم الله وجهه طعاما فارسيا ، فأحبه وسأل : ما هذا ؟ قال . هو النوروز فقال : نورزونا كل يوم .

ويحكى ان الحجاج اول من رسم هدايا النوروز وابطل ذلك عمر بن عبد العزيز من بعد . والجدير بالاشارة ان اهم امر في هذا العيد عند الفرس القدماء ان تقدم الهدايا من الالبسة والاطعمة الى الشعب . ولم يغفل ادباء العربية ذكر النوروز في اشعارهم وقد سبق فيما تقدم قول البحتري كما ورد في مديح المتنبي لابن العميد قوله :

جاء نوروزنا وانت مراده — وورت بالذي اراد زناده
عظمته ممالك الفرس حتى — كل ايام عامه حساده

وثمة عيد آخر للفرس هو « المهرجان » اول الخريف في اليوم الثالث والعشرين من شهر ايلول وقد ذكر ابن الرومي هذا العيد حينما هنأ به عبدالله بن عبيد الله فقال :

ما رأت مثل مهرجانك عينا — اردشير ولا أنو شروان
مهرجان كانما صورته — كيف شاءت مخيرات الاماني

الاصل التاريخي للنوروز

لعل قدم احتفال الشعوب الآرية بهذا العيد قد حرمنا من معرفة بداياته معرفة علمية دقيقة لان خبره قد اختلط بالقصص الشعبي الخيالي حتى دخل ميدان الاسطورة والخرافة والاعجب من هذا ان نراه يمثل مجدا متشابها يفخر به شعبان آريان في الشرق هما الفرس والاكراد وكل منهما يزعم انه صاحبه وانه رمز متجدد لحبه الحرية ، وسعيه من اجلها ...

لا تكاد تذكر النيروز امام كردي ، ولو كان متعلما ، حتى ترى بسمة السعادة والاعتزاز تزين وجهه الشرقي الاليف وانت تسمع روايات مختلفة للقصة لكنها جميعا تترجم التطلع نحو حياة خالية من العسف والطغيان .

يقولون : ان ملكا جبارا في امبراطوريتهم القديمة كانت نفسه تغلي بسعار الشهوة ، وكان لا يكبح جماحها بل يشبعها على حساب شعبه .. ومن اجل ان يظهر عمله مسوغا امام شعبه فقد ادعى ان النهر المقدس له في رقبة شعبه الحق في ان يختاروا اجمل فتاة تهدى اليه قربانا ...

وكان الملك هو المستفيد الوحيد من هذا القربان لانه يعتدي على اثمن ما تملكه الفتاة ثم يذبحها بيده وتلقى الى النهر ... ولما ضاق الشعب بهذا العسف ثار عليه وقتله وصار يوم قتله عيدا سموه النيروز اي اليوم الجديد ...

وثمة رواية اخرى تزعم ان ملكا طاغية كان يشبع بشهوة القتل كلما صادفت عينه شابا واضح الفتوة فيأمر باحضاره وقتله .. وذات يوم شاهد رجلا احتفظ برونق شبابه وفتوته رغم تقدمه في العمر فاستحضره وطلب منه ان يتمنى قبل ان يموت ...

فرغب اليه في ان يرى زوجته واولاده الصغار فسمح له على ان يعود في اليوم الثاني ... في اليوم الثاني وفي الموعد المحدد كان هذا الرجل قد حضر ووقف بين يدي الملك ، وعندما صدر امر قتله اخرج من ثيابه سلاحا كان قد اخفاه ورمى به الملك فهوى صريعا ؛ فنجا الرجل واخذ ثار اولاده الشباب الثلاثة الذين قتلوا من قبل ... وقد عمت الفرحة ابناء الشعب فخرجت الجموع الى الجبال تشعل النيران

فؤادي

فؤادي مطبوع على الحب مفطور
تعود ان يمسي ويصبح ضاحكا
تساوى خمـول عنده ونباهـة
اذا ساءه غـدر الصديق فعفوه
هم الناس ، مهما شطت الدور ، اسرة
افضل ان اقضي ضحيـة طيبتي

فغضبتـه مـزح ونقمتـه زور
وان هو لم يضحك على افقه نور
فلا يزه مشهور ولا ياس مغمور
على كـل آفات الصداقة منثور
فقاهرهم في واقـع الامر مقهور
على ان يضحى في سبيلي عصفور

بوانس ايريس — الارجنتين

زكي قنصل

ابتهاجا بموت الطاغية وصار هذا اليوم عيدا يرمز للحياة الجديدة الخالية من العسف والظلم .

اما الفرس فلديهم قصة تشبه ما مضى ، وهي ما ذكره ابن الاثير في الكامل عن الملك (بيوراسب) الذي استولى على ملك (جم بن اوشهنق الاكبر) وحكم مدة ستمائة سنة سار فيها بين الشعب بالفساد والجور وبسط يده في القتل وهو اول من سن الصلب والقطع واول من وضع العشور (الضرائب) وضرب الدراهم ، واول من تغنى وغني له ..

كل الذي مضى من اعمال بيوراسب — على ما يبدو — هو السبب الذي اعطاه صورة مخيفة عند شعبه مما جعل الالسنة تدور في الخفاء تختلق الحوادث وتركبها تركيبا اسطوريا عجيبا فالملك بيوراسب كان ساحرا مخيفا وقد هول على شعبه بحيتين كانتا على منكبيه وقال للناس : انهما تطلبان الطعام وتتحركان اذا جاعتا ، وقد ذبح الصبيان ليسكن الحيتين ويوقف اضطرابهما وهما لن تتوقفا حتى يطليهما بدماغ انسان ...

لقد ازدادت آلام المواطنين باستمرار القتل وغلى ثم الشعب وهو ينتظر مخلصا ، فمن يكون هذا المخلص ؟ :

ان احد مواطني مدينة اصبهان يدعى (كابي) ، قد قتل طفلاه ، وقدم دماغاهما للحيتين فحمل هذا الرجل عصا ورفع عليها جرابا فصارت راية ثورة ضد السفاح وسرعان ما اندفع الاباء وراء الرجل فما كان من الملك الا ان يفر تاركا قصره طالبا للنجاة ..

ومع مرور الايام ، ازداد الناس وفاء لراية الاب الثائر ، فاتخذوها علمهم الاكبر وتبركوا بهـا وسموها (درفشي كابيان) بالفارسية وتعني (علم كابي) ولم ينج الملك بيوراسب بالفرار لان سليمان بن داود (عليهما السلام) صادفه في الشام فالقى القبض عليه وقيده بالاغلال وعندما علم انه فر بقيوده الى خراسان وجه امره الى فاوثقوه وعملوا عليه (طلسما) كرجلين يدقان باب الغار .

وتذهب رواية اخرى الى قول اقرب من هذا حين تجعل الملك الجديد افريدون الذي نصبته ثورة كابي يستمر في مطاردته حتى اسره ثم قتله فيما بعد فاحتفل الفرس عند ذلك (امروز نوروز) اي هذا اليوم يوم جديد فاتخذه الفرس عيدا يتذكرون فيه قتل عدو الحرية بيوراسب واما اليوم الذي اسر فيه فهو الآخر غدا عيدا ويسمونه (المهرجان) اما الثائر كابي وهو الرجل المثالي الذي ضحى وثار فلا يليق به ان يطمع بالحكم فقد رفض ان يولى وطلب من (افريدون) سليل الملوك القدماء ان يتولى السلطة ...

عبرة في الاسطورة

مهما يكن شان القصة وما سبقها في ميزان التحقيق التاريخي فان المغزى واضح ومقبول . ان غريزة البقاء وغريزة التملك لدى الشعب ، عندما تهددان من قبل اي حاكم في التاريخ فلا بد ان يبحث الشعب عن طريق للخلاص ، وهم ان لم يجدوه في الواقع فسوف يستوحونه في اقاصيص واساطير تحفظها الذاكرة لتتحرك السنة الاجيال وهي تلعن الظالمين .

ولن تعدم الشعوب مخلصين من امثال كابي يرفعون عصا وجرابا ثم تاتي عصي ورماح وسيوف ويتحول الجراب راية تراثية مبجلة .

ومع ازدياد شعور الرعية بالظلم تختفي كل ايجابيات الحاكم وتتحول الى نقاط مظلمة تدون هي الاخرى في قائمة السلبيات .

ولنعد الى الاعمال السيئة التي عددها المؤرخون على بيوراسب كي نرى فيها اعمالا عظيمة في تلك الحقبة البدائية من التاريخ فهو الذي كان اول من ضرب الدراهم واول من تغنى وغني له وهذان عملان لهما شانهما في ميزان التمدن الانساني ولكنهما يذكران مع سيئات هذا الظالم .

قطنا — سورية — ثانوية البنين

زياد الاحدب



نقولا يوسف

نقولا يوسف : ذكريات ورسائل

بقلم احمد حسين الطماوي

* * *

تعتبر الرسائل الادبية صفحات من الادب والتاريخ والترجمة الذاتية والاعترافات .

وقد نشر في العصر الحديث عديد من الرسائل المتبادلة بين الادباء ، فنشر محمود ابو رية رسائل الرافعي اليه ؛ وبسط طاهر الطناحي على صفحات الهلال خطابات مي الى جبران والعقاد ولطفي السيد وغيرهم . وبين طيات كتاب « لمحات من حياة العقاد المجهولة » والذي وضعه عامر العقاد نجد رسائل عبد الرحمن شكري واحمد امين ومحمود تيمور وصوفي عبدالله والسنهوري الى العقاد ، ونشر محمد سيد كيلاني رسائل احمد عزابي في مجلة « آخر ساعة » القاهرية . وفي اعداد مختلفة من مجلة الادب نجد رسائل عبد الرحمن شكري الى نقولا يوسف ، كما اصدرت وزارة الاعلام العراقية كتابا يحمل عنوان « الرسائل المتبادلة بين الكرملي وتيمور » وقام بتحقيق هذه الرسائل كوركيس عواد ، وميخائيل عواد : وجليل العطية . اما مجلة الاديب الغراء فقد حفلت في الكثير من اعدادها بالرسائل الادبية ونبهت على قيمتها فأصبحت رائدة في هذا المجال .

وهذه المراسلات الادبية بين الادباء الاصدقاء تكشف عن قسط وافر من حيواتهم ، وتفسر بعض الغوامض من آدابهم ، وتحلل آثارهم ، وتلقي ضوءا ساطعا على الدوافع التي دفعتهم الى تأليف بعض كتاباتهم او تدبيج مقالاتهم .

ولا ريب ان شخصية الاديب تكون اكثر وضوحا وجلاء من خلال رسائله ، لان هذه المكاتبات تتناول التفاصيل والجزئيات لمعان كلية او امور اجملها الكاتب في مؤلفاته ، او قد تحدد تضوره ، وتعين مقاصده من عمل ادبي لم يستطع القارىء ان يفطن اليه او يدركه . فتكون الرسائل والحالة هذه هادية الى الفهم راشدة الى المعرفة .

ويراعي كاتب الرسالة ان تكون رسالته مشبعة لانها في الغالب تجيب على اسئلة خاصة عن سيرته الذاتية او عن مضمون فكري في ادبه ، وعلى هذا فقيمة الرسائل موكولة بقدر ما فيها ، وبما تشتمل عليه من معارف مفيدة ، واجابات صحيحة .

وتتميز الرسائل الادبية في الغالب بعدم التنميق والتوشية والصياغة العالية ، والخذاقة اللافتة ، واهم ما يحرص عليه الكاتب هو الموضوع وعلينا في هذه الحالة تفهم الجو الروحي للرسالة .

وقد اثرت الرسائل في البحوث الادبية فكثيرا مـا يستعين الدارسون بها ويستشهدون ببعض منهـا في دراستهم .

وعلى اي حـال فالرسائل الادبية بناءة للصداقة والالفة ، بما تشيعه من جو الوداد والثقة .

في منتصف الستينات كنت بصدد تأليف كتاب عـن الشاعر المصري عبد الرحمن شكري ولم يكن « شكري » حتى ذلك الوقت قد الفت عنه الكتب الكثيرة كما هو الحال الآن(1) ، ولئن كانت هناك مقالات كتبها الكاتبون عنه تجدها بين ثنايا الدوريات المختلفة وتعطي صورة ما عنه ، وكان اعتمادي الرئيسي في دراستي على ديوان « شكري » الذي جمعه وقدم له بدراسة وافية الاستاذ نقولا يوسف ، وما كنت اعرف شيئا عن الرجل الذي جمع هذا الديوان وصدره بهذه المقدمة الضافية المبيئة .

وذات يوم وقع في يدي عدة اعداد من مجلة « الادب » التي كان يصدرها الشيخ امين الخولي واول ما لفت نظري رسائل « شكري » الى نقولا يوسف والتي كان ينشرها تباعا في هذه المجلة ، ولا شك ان الدارس يستعظم اي شيء يمت بصلة الى الموضوع الذي يدرسـه .

---

(1) من هذه الكتب « عبد الرحمن شكري . نظرات في شعره » للدكتور انس داود ، و « عبد الرحمن شكري شاعر الوجدان » ليسري محمد سلامه ، و « عبد الرحمن شكري » للدكتور احمد عبد الحميد غراب .

وكان الاستاذ امين الخولي يعقد ندوة ادبية كل يوم احد يقصدها تلاميذه ومريدوه والذين يطلق عليهم « الأمناء » وقد كنت من المترددين على هذه الحلقة الادبية . وذات ليلة توجهت الى الشيخ امين بسؤال عن هذا الرجل الذي ينشر رسائل « شكري » فأجابني رحمه الله وافادني واملى علي عنوانه . .

وقد كنت تواقا الى مقابلة اي رجل يكون قد عرف شكريا عن قرب ، فوجدت في نقولا يوسف ضالتي وعلى الفور كتبت اليه رسالة ضمنتها عدة اسئلة واستفسارات عن شكري ليجيبني عليها ، وبعد قرابة اسبوعين ، فوجئت برسالة منه مؤرخة في ١٩٦٦/٢/١٨ يخبرني فيها انه على استعداد للقائي ثم تفضل بالاجابة على اسئلتي وهذه هي الرسالة الاولى التي تلقيتها منه ، ولحسن الحظ لم تضع :

اخي الاديب الاستاذ احمد حسين الطماوي :

تحية واجلالا . تلقيت رسالتكم المؤرخة في ١/٣٠ — تأخرت في الوصول كما تأخرت في الرد وخلولت خلال المشاغل الخاصة ان اجيب على ما ورد في رسالتكم من اسئلة عن حياة استاذنا المرحوم عبد الرحمن شكري في شيء من الاسهاب ولكن نظرا لمرور الوقت دون تحقيق هذه الأمنية ، رايت ان ابعث اليكم بهذه الاجوبة الموجزة الموقتة ريثما تسنح فرصة قريبة نلتقي فيها ، فقد ذكرتم في رسالتكم ان لا مانع من تحديد موعد للمقابلة بالاسكندرية ، فاذا كان هذا ميسورا فعنواني املاه تحت تصرفكم في اي وقت تشاءون شاكرا لكم هذا الظن الحسن بي ، والشعور الطيب نحو استاذنا الراحل ، ومهنئا اياكم بالمجهود الذي تبذلون في وضع كتاب عنه .

١ — لم يحدد شكري التاريخ الذي هاجرت فيه اسرة عياد من المغرب الى مصر — كعادته في اهمال التفاصيل والجزئيات الخاصة بحياته واقتصاره على الصور النفسية والادبية (كما ترى في : « الاعترافات » — وذكرياته في « المقتطف » و « الرسالة ») والارجح ان هذه الاسرة جاءت من المغرب في القرن الثامن عشر سعيا وراء الرزق .

٢ — هل كان في بور سعيد عام ١٩٠٠ مدرسة ثانوية مصرية ؟(٢) — ثم نقل والده الموظف من بور سعيد اذكر اننا عام ١٩١٧ عقب حصولنا على الشهادة الابتدائية من « مدرسة دمياط الاميرية » ولم يكن في هذه المدينة عامذاك مدرسة ثانوية او صناعية — حولتنا وزارة التعليم الى مدرسة راس التين الثانوية بالاسكندرية (داخلية) وكانت المدارس الثانوية « الحكومية » قليلة جدا والالتحاق بها خاضعا لتصرفات الوزارة وقوانينها .

٣ — لم يتزوج شكري (وكذلك لم يتزوج عباس العقاد — وفكري اباظه — وتوفيق حبيب (الصحفي العجوز) والفنان ادهم وائلي والاديب نقولا فياض ومي زيادة وخليل مطران الخ . . . ، ولكل منهم سببه الخاص .

٤ — لشكري قصيدة بعنوان : « ثورة ١٩١٩ » وغيرها وكان ينشر في جرائد : السفور ، وعكاظ ، والاهرام والمقطم ، وبعدها في المقتطف والرسالة والمجلة الجديدة — الخ . وله شعر ومقالات بتوقيع ع. ش. او غيرها (وانظر ملاحظات في آخر ديوان شكري الاخير) .

٥ — فصل شكري من مدرسة الحقوق بعد ان قضى بها سنتين (١٩٠٤ — ١٩٠٦) بسبب القصيدة اما المرحوم زميله عبد الرحمن بدوي فلم يفصل مثله نهائيا لتدخل بعض العوامل (وانظر صورة تلك الفترة وموقف مدرسة الحقوق في كتاب : « مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي » باب اضرابات مدرسة الحقوق عام ١٩٠٦ .

والى اللقاء مع خالص مودتي — « نقولا يوسف » .

وعلى اثر هذه الرسالة توجهت الى مدينة الاسكندرية ولم اكن قد رايتها قبل ذلك ، وقابلني الرجل في منزله وكانه يعرفني منذ سنين طويلة ، ورحنا في احاديث شيقة عن شكري وعن الادب في عصره وعن فلان . . . وفلان والشيء بالشيء يذكر .

وعندما عرف مني ان هذه هي المرة الاولى التي ارى فيها الاسكندرية صحبني في اليوم التالي في سياحة جميلة عرفني فيها بعض معالم المدينة ، وقضينا ساعات جميلة في قصر « المنتزه » وشاهدت البحر الابيض المتوسط لاول مرة ، هذا البحر الذي ظللت لسنين طويلة ارسم خرائطه واذكر الثغور التي تطل عليه في امتحانات المدارس .

وفي يوم ثالث صحبته الى كازينو « المعلمين » حيث التقينا بالمستشار تادرس ميخائيل تادرس الذي اهداه نسخة من كتاب « ذكريات من عالم المحاماة والقضاء » . وطلب لي نقولا يوسف من المستشار نسخة من هذا الكتاب لاقرظه فاعتذر الرجل لعدم توفر ذلك ولكنه عندما عرف انني اقيم في القاهرة وجه الي الدعوة لزيارته وقد زرته واهداني الكتاب ولما قراته اشفقت على نفسي ان اخوض في مواد قانونية وقد لا احسن الحديث عنها والحكم فيها فاستمتعت بما جاء فيها واثرت السكوت ، اما الاستاذ نقولا فقد كتب مقالا عن الكتاب في جريدة « وطني » وقد علقت على هذا المقال في رسالة فرد عليه برسالة في ١٩٦٦/٥/٨ .

واثناء زيارتي له اعطاني قصاصات من ورق الجرائد والمجلات وعندما طلبت منه مجلة « الابحاث » لعام ١٩٦٠ والتي نشرت رسائل شكري الى فؤاد صروف ، احالني الى الاستاذ وديع فلسطين وقد تعرفت عليه ونشأت بيننا صداقة اعتز بها ، وقد ساعدني كثيرا والرجل صاحب فضل وقد وصفت لنقولا اثر لقاء هذا الرجل الكريم في نفسي . وقبل ان نعرض خطابه في ١٩٦٦/٥/٨ يحسن ان نبسط هنا خطابه في ١٩٦٦/٣/٢١ حيث يقول :

اخي الاستاذ الجليل . . .

تحيات طيبات . . . وتمنيات . . . ودعوات . . .

(٢) هكذا من اصل الخطاب .

تلقيت رسالتك المؤرخة في ٤/٣ وفيها كلمتك القيمة عن « جبران » اما الكلمة فقد ارسلت الى مجلة « الاديب » البيروتية « وما على الرسول الا البلاغ » .. واما رسالتك الكريمة فاشكرك على ما جاء بها من ثناء انت جدير به لانك السابق الى الفضل ، الساعي الى الخير .. وارجو الا تعذلني على هذا التقصير في الكتابة وهذا التسويف في المراسلة « وقد وقد قلت حقا ولكن ليس ينفعه » لعلة اقتران برد الجو ببرودة الشيخوخة ما ينتج احيانا هذا « التقاعس » عن ادراك المطالب ، وهذا الفتور في الهمة ورحم الله القائل « وما نيل المطالب بالتمني ! » .

وبعد فارجو ان اوفق في ارسال كل ما شئت عن استاذنا المرحوم عبد الرحمن شكري فانت ولا شك تنشد الحق والانصاف والنقد النزيه وكلها صفات كانت تضل طريقها في ايامنا وسط اعاصير الحزبيات والعصبيات وما زال لها بعض الرواسب .

واما ما ذكرت عن رسائل شكري للعقاد التي سمح لك عامر العقاد بقراءتها دون نقلها فلعلك ترسل لي مشكورا كل ما تذكره منها لانها تتفق مع ما رواه لي شكري قبل وفاتــه .

اما كلمة « استاذي » في رسائل شكري فغير مقصورة علـى رسائله للعقاد وسوف تراها في رسائله الاخرى لفظة لا تعني شيئا .

حزنت لوفاة الباحث الاديب امين الخولي وهممت بالكتابة عنه وما زلت اهم ... وكلما شرعت في الكتابة عن صديق اديب راحل ، طالعني نعي اديب آخر (وانا اليه راجعون) ...

اكتب اليك علـى شاطىء البحر والامواج امامي تصطخب والعاصفة تزار وكاننا عدنا الى الشتاء وقد بدا الربيع فلكيا ...

والى لقاء مـع خالص المودة واللقاء ودمت لاخيك « نقولا يوسف » .

اما خطابه المؤرخ في ١٩٦٦/٥/٨ فهذا نصه :

اخي الاستاذ الجليل

تحية وسلاما ، تلقيت رسالتك المؤرخة في ٥/٦ كما وصلتني سالة رسائلك السابقة والمؤرخة في ٢/٢٤ ، ٢/٢٤ ، ٣/٢٥ ، ٤/٨ ولعلي كتبت اليك ثلاث رسائل او اربع فالحمد لله لم يضع من رسائلنا في الطريق شيئا . ولي مع مصلحة البريد قصص وحكايات في ضياع المراسلات ! واما الصحف والمجلات التي ارسلها اليك احيانا اذا شئت ؟ فللفرجة والالمام ، على طريقة « تفرج يـا سلام » : . ووصلتني مقالك عن « جبران » وقصيدتك : « في موكب الربيع » وقد ارسلت الاولى الى « الاديب » والثانية الى « وطني » والارسال الى الصحف يا صديقي لا يكلف شيئا ، ولا يتعب احدا ؛ ولكن المهم هو رضاء محرري الصحف وموافقتهم على النشر ، ولا علاقة لقيمة المقالة او لجمال القصيدة في هذا وذاك .. وما علينا الآن وسوف اوافيك بالنتيجة ... فهي امور مشهورة .. واما مقالتي عن كتاب الاستاذ تادرس « ذكريات » المنشورة في « وطني » فكما قلت تماما تهتم بالمؤلف اكثر من موضوع الكتاب ، فقد قصدت بها تحية صديق قديم جدير بالتعريف والتقديم على ان يلي ذلك النقد والتحليل والتقييم . ونويت كما قلت للمؤلف ان استكمل الموضوع في مجلة تحتمل الاسهاب ...

وامامي عشرة كتب ودواوين جديدة اهداها الي اصحابها الاعزاء وفي نيتي الكتابة جميعا قياما بالواجب .. ولكني كما كتبت الى الاخ النبيل وديع فلسطين اشعر بداء عجيب فقد بلغت الستين ! فاني استطيع قراءة الصحف والمجلات، والكتب ، والمقالات كل يوم عدة ساعات .. ولكني لا اصبر علـى كتابة بضع كلمات !؟ وتتراكم امامـي المؤلفات والخطابات والبطاقات وانتهز فرصة الاعياد فابعث الى الاصدقاء بعشرات المعايدات في بطاقات موجزات ، ويصل منها ما يصل ويضيع ما يضيع والله اعلم بمصير الباقيات !؟ والمسالة يا اخي ليست كما تقول في تفسير التأخير « تهاونا في امر الخطابات » ولكنها بوادر الشيخوخة بعد جهاد اربعين عاما في ميدان التعليم وميدان القلم وميدان الخدمة العامة والخروج منها جميعا صفر اليدين ولكنهما يدان نقيتان ، لم تعرفا غير الاحسان .

واما ما ذكرته في خطابك الاخير عن الصديق وديع فلسطين فحقيقي فهو كما عرفته منذ ربع قرن الانسان الفاضل المخلص النزيه والمؤمن كما يقولون مصاب !

ومع انه لا يملك في هذه الدنيا (مثلي) غير مرتبه الشهري ، فهو غني بخلقه ونبله .. وقد سررت بما ذكرت عن تاليفك كتابا عن عبد الرحمن شكري ، وكان جديرا بان يكتب عنه عشرة كتب كما حدث مع تلاميذه ، فخيرا فعلت والى اللقاء مع خالص المودة والوفاء « نقولا يوسف » .

واستمرت المراسلات بيننا وحمل الي ساعي البريد رسالته المؤرخة في ١٩٦٦/٧/٦ وفيها يقول :

اخي الجليل الاستاذ

تحية طيبة — تلقيت رسالتك الاخيرة من زمن ...

وكلما هممت بالكتابة اليك والى سائر الاصدقاء او الى ارباب الصحف والمجلات — حالت دون ذلك اشكال والوان من المشاغل العائلية والمشاكل الدنيوية .

ومنذ ان اهل الصيف اخذ الاصدقاء الادباء يردون الى الشاطىء وقد اتخذنا ركنا مـن (كازينو كليوباترة الحمامات) المسمى اليوم بكازينو الغزال ، نعقد فيـه جلساتنا الصباحية علـى شاطىء البحر — وكان اول القادمين في هذا الصيف الاستاذ ابراهيم المصري ، فاذا نزلت بشاطئنا قريبا وجدتنا في انتظارك — لمتابعة الحديث عن استاذنا عبد الرحمن شكري رحمه الله .. وعمن تحب من الادباء الراحلين والمعاصرين وكلنا في شوق الى رؤياك ..

ويبدو ان الصيف يدعو الى الكلام والحديث اكثر مما يدعو الى الكتابة والتحرير او هكذا يخيل الي ..

والى اللقاء ايها الاخ العزيز على شاطىء البحر .

مع خالص مودتي « نقولا يوسف » .

وفي عدد يوليه ١٩٦٦ من مجلة الكتاب العربي نشرت مقالا عن كتاب الاستاذ الفاضل علي ادهم (صقر قريش) فعلق عليه في هذه الرسالة المؤرخة في ١٩٦٦/٨/١٧ .

(كازينو لاكويرتا)

اخي الاستاذ ...

تحية وسلاما ... تلقيت يوم ٨/١٤ المظروف المسجل وبه رسالتك الكريمة المؤرخة في ١٩٦٦/٨/٨ وكلمتك النقدية لكتاب عبد الحي دياب ... الاقصوصة الرمزية المعنونة : (المجنونان) وهي قصة جيدة تصلح للنشر .. ثم قصيدتك العاطفية : (انا والسمراء) ..

وما زلت متحفظا بأصلي مقالة (جبران) وقصيدة (في موكب الربيع) اللتين ارسلتهما الي من قبل وارسلتا الى الصحف ..

ورجائي ان تحتفظ بصورة من كل قطعة ترسلها الي للنشر — فقد تضيع في البريد او في ادارات الصحف وسوف ترسل هذه القطع جميعا — كما اتفقنا — الى مختلف الصحف والمجلات بالرغم من الهرج والمرج الذي يعم الشاطىء في شهر اغسطس وقضاء النهار مع الضيوف والزائرين من الصحاب والمصطافين ..

واتصلت امس بفندق فلوريدا بحثا عن الصديق فوزي سليمان (جريدة المساء) لاسلمه مقالتك النقدية للنشر فعلمت من اسرته انه في بعثة او رحلة الى اوروبا ، وسيعود بعد ايام — ولهذا سأرسل مقالك الى صديق آخر في « المساء » واطلعت بمجلة (الكتاب العربي) على مقالتك النقدية عن كتاب (صقر قريش) وهي مقالة ممتازة بمجلة ممتازة تدل على موهبة واستعداد في النقد .. ويا حبذا لو اقتصرت الآن على النقد الادبي الذي برزت فيه واجلت نشر القصائد الشعرية الى فرص قادمة حتى لا يتوزع المجهود الفني في عدة ميادين ..

ثم اني اشكرك على سعيك في الحصول على نسخة من كتاب شكري الذي وضعه الاديب يسري محمد سلامه وطبعه مجلس الآداب والفنون .. وارسال قصيدة شكري (القافلة) والسطور التي دبجها يراعة اخينا دياب عني في كتابه المذكور . وعقب سفرك الى القاهرة زارني الاستاذ محمد السعدي فرهود الذي يعد رسالة دكتوراه من الازهر عن « شكري » وقضى معنا ثلاثة ايام وعاد الى القاهرة وقد ارسل الي انه اتصل بك بالبريد . ازكى تحياتي اليه والى صديقه الاستاذ محمد رجب البيومي والى اخي الاستاذ علي احمد باكثير (اذا التقيت به) والاستاذ ابراهيم المصري والاستاذ عبد العزيز الدسوقي والاستاذ اسعد حسني بجريدة الجمهورية والشاعر عبد اللطيف النشار بمجلة صوت الشرق والدكتور كمال نشأت بالمجلس الاعلى وسائر الصحاب ، والى اللقاء في اسعد الاوقات ودمت للمخلص

« نقولا يوسف » .

وفي اغسطس عام ١٩٦٦ ذهبت الى الاسكندرية مصطافا والتقيت به عدة مرات في بيته وفي كازينو (لاكورتا) على شاطىء البحر ودار حديثنا عن الادب وعن « شكري » وعن الناس والحياة ، وزرنا المتحف الروماني الاغريقي وقام بالشرح والتعليق على كثير من التماثيل تجلت فيها مقدرته على الحديث في الفنون الجميلة ؛ ثم ارسل الي رسالة مؤرخة في ١٩٦٦/٩/٢ جاء فيها :

عزيزي الاستاذ

تحية واعزازا واجلالا .. تلقيت رسالتك الاخيرة — ومعها قصيدة « شكري » (القافلة) المنشورة في عكاظ ... ذلك شكري الجزيل ...

وقد كتبت الى الاستاذ محمد السعدي فرهود — الذي يعد رسالة دكتوراه من الازهر عن عبد الرحمن شكري ، انه ارسل اليك خطابا تمهيدا للمقابلة وتبادل الراي في الشاعر وشعره ... واعتقد ان السيد فرهود رجل كريم الخلق . وزارني ايضا في الاسبوع الماضي الاستاذ بهجت المطار المدرس بمعهد المعلمات بالزقازيق واخبرني انه يعد رسالة ماجستير (دار العلوم) عن « شكري » باشراف الاستاذ محمد خلف الله وكيل جامعة القاهرة (ولعله في المعاش الآن) — وطلب الاطلاع على رسائل « شكري » ومجلة ... الادب ... وما اشبه ... ثم عاد الى القاهرة .. فالزقازيق ليكمل البحث ..

واطلعت اليوم على مقاله بمجلة (الفكر المعاصر) عدد سبتمبر ١٩٦٦ عن عبد الرحمن شكري بقلم محمد عبد الغني حسن — ولم اطلع بعد على كتاب يسري سلامة عن « شكري » الذي طبعه له المجلس الاعلى لرعاية الفنون — لعلي اراه اذا حضرت قريبا الى القاهرة ..

وتأخرت في الكتابة اليك لاني كنت مزمعا على السفر الى القاهرة مع زوجتي (لان ابنتي وضعت طفلة — هناك في ١٩٦٦/٨/٢٢) وارجو ان اكون في (المعادي) هذا الاسبوع باذن الله لقضاء بضعة ايام مع ابنتي — وسأكتب اليك لنتقابل في القاهرة ...

وتلقيت في هذا الاسبوع من الاستاذ محمد سيد كيلاني كتابه عن (الادب القبطي) وسأكتب اليه اليوم شاكرا وقد عاد الاستاذ فوزي سليمان (جريدة المساء) من اوروبا وسأرسل اليه مقالك النقدي كما سأرسل ما تبقى من المقطوعات الى الصحف والمجلات .

لك ايها الاديب العزيز خالص شكري ومودتي والى اللقاء . المخلص « نقولا يوسف » .

وعندما زار كريمته في المعادي في سبتمبر ١٩٦٦

التقيت به وفي هذا الخطاب المؤرخ في ١٩٦٦/١٠/٧ يشير الى ذلك قائلا :

اخي الاستاذ الجليل ...

تحيات طيبة وتمنيات ودعوات .. عدت الى قواعدي سالما بكليوباتره الحمامات يوم ٢١ من شهر سبتمبر (اللي فات) بعد ان قضيت اسبوعين في المعادي بين الحقول والقراءات والرقاد ... ومع الاهل والادباء والاحفاد ... وكان من حظي السعيد ، ان حظيت برؤيتك هناك من جديد ، ونعمت في هذه الرحلة بمجلس ادباء من القاهرة ، والصعيد ولكني عدت في هذه المرة منحرف الصحة والمزاج مما اقعدني عن الكتابة الى الصحاب والاحباب ... ولم تزل زوجتي تقيم مع ابنتي في المعادي وانا اهيم بين كازينوهات البحر وفي كل واد ... وليس لي اليوم عمل غير المطالعات في صحف الطبيعة وشتى المطبوعات ... ومنذ زمن مللت النقش على الورق بالاقلام فرحت اكتب في الهواء ما تمليه الاخيلة والاوهام ... هذه اخباري — فما وراءك يا عصام ؟ عساك قد تبرعت في طبع كتابك عن « شكري » في احدى دور الطباعة والنشر .. وارجو ان تكون في صحة وعافية... وان تكون قد ارسلت عددا من المقالات الى مختلف الصحف والمجلات ، وقد سلمت قصتك الى مجلة (السفير) السكندرية ، كما طلبت .. وارسلت غيرها الى صحف اخرى وسأفيدك في حالة نشرها — وكل آت قريب .. .وكنت قد كلفت بوضع كتاب كبير عن (اعلام الاسكندرية) وفرغت من تاليفه منذ سنتين ولكني اعدت كتابته — وما زلت مشغولا بأمره اطالع من اجله عشرات المراجع في لغات ثلاث — يحيق بي الملل والكسل وفتور الهمة .. كما كلفت بوضع كتاب آخر عن (الادب اليوناني الحديث) منذ القيت في مهرجان الشعر السادس بالاسكندرية محاضرة عن (الادباء الاوروبيين السكندريين) ثم ركنته بعد ان بلغت نهايته ... وغير هذا وذاك كثير .. لا افهم سببا لهذا الفتور وهذا التقصير ...

ازجو ان اراك بخير وسلام في زيارتي القادمة للمعادي (ان شاء الله) وسأكتب اليك لدى حضوري .. وازكى تحياتي الى الاستاذ الجليل علي ادهم والى اللقاء في رسائل قادمة قريبة ....

مع خالص شكري ومعذرتي ومدتي وسلامي . دمت لاخيك المخلص « نقولا يوسف » .

وحينما انهيت مؤلفي عن عبد الرحمن شكري دفعت به الى المطبعة لنشره على نفقتي في شهر سبتمبر عام ١٩٦٦ ، ولكن حدثت كارثة عطلت النشر وفي غير هذه المناسبة نفصل هذا الامر وقد ارسلت اليه اخبره ببعض ما حدث فجاءني كتابه المؤرخ في ١٩٦٦/١٠/٣٠ والذي يقول فيه :

عزيزي الاستاذ

تحية وسلاما ... تلقيت رسالتك الكريمة منذ بضعة ايام ... وبها تقول انك شرعت في طبع كتابك عن (عبد الرحمن شكري) على نفقتك وانجزت منه ملزمتين مطبوعتين ثم حدث ما عطل الطبع — وانت لذاك حزين الى آخر ما قلت .. ولكنك يا اخي لم تفسر لي هذه الالغاز ، وعساك ان تستشير الصديق الكبير علي ادهم ، فان له خبرة عريقة في ميادين التاليف والطبع والنشر ، وكان من رايه ومن رايي كما تذكر في جلستنا معه بمصر الجديدة ان طبع الكتب على نفقة مؤلفيها مجازفة مالية استغني عنها اليوم بالاكثار والتنظيم في دور النشر العامة والخاصة ، وعلى رأسها الدار القومية للطبع والنشر التي يخرج منها كل صباح كتاب مطبوع ، فهل يا ترى جربت حظك مع بعض هذه الدور قبل الاقدام على طبعه (من الجيب الخاص) ومع ذلك اظن ان امامك الفرصة في الاتصال بأحدى دور النشر بالقاهرة لتكمل طبع الكتاب على نفقتها مع التساهل في الشروط ... وتكون هذه تجربتك الاولى في هذا الميدان الفسيح . ارجو ان تكون في صحة طيبة متمتعا بالسلام النفسي اما انا ففي صحة وعافية ولا جديد عندي — ولم ابرح الاسكندرية منذ عدت اليها من المعادي يوم ٦٦/٩/٢١ وهانذا اكتب اليك هذه السطور في كازينو كليوباتره على شاطىء البحر ، والصيف ما زال سائدا والبحر هادئا والشاطىء خاليا والقلب متعبا والقلم متقاعسا ، ولله الحمد الذي ادام نعمته فأستطيع القراءة والكتابة ولله الحمد في هذه السن ، ولا عمل لي اليوم غيرهما — في حدود الطاقة وقيود الشيخوخة — ثم ارجو ان تطمأنني على حكاية كتابك وعن حصولك على نسخة من كتاب يسري سلامة عن « شكري » ... وعن صحة الاستاذ علي ادهم .. وعن مشروعاتك القلمية الجديدة ومراسلة المجلات الادبية .

والى اللقاء في رسائل اخرى ...

ولك خالص مودتي وسلامي. المخلص «نقولا يوسف»

ويبدو ان الكريم الفاضل وديع فلسطين قد احاط نقولا بما حدث لكتابي فأرسل لي الرسالة التالية المؤرخة في ١٩٦٦/١٢/٦ ليسري عني :

اخي الاديب الجليل

تحيات طيبات ... وامنيات .... ودعوات ...

راجيا لك وافر الصحة والعافية .. تلقيت رسالتك شاكرا وعلمت من رسالة للاستاذ وديع ما حدث لكتابك عن المرحوم عبد الرحمن شكري بعد ان طبعت منه ملزمتين ، والمسالة في رايي سوء حظ طارىء ادى الى توقف مؤقت عن طبع الكتاب — ولا داعي للحزن او اليأس وقد قالوا : (كل تأخيره فيها خيره) — و (في التاني السلامة) — وتستطيع في هذه الفترة ان تضيف الى الكتاب جديدا وتبحث في دار الكتب عن مراجع تائهة ... وارجو اذا زرت يوما دار الصحف في القلعة ونبشت في مجلدات (السفور)

القديمة منذ عام ١٩١٥ ، وعثرت على قصيدة او مقالة « لشكري » في السفور ان تتكرم بافادتي مشكورا عن عنوانها وتاريخها — فقد نشرت مرة مقالة عن جريدة السفور بمجلة الادب لصاحبها امين الخولي رحمه الله — وكتبتها بالاسكندرية ، ولم اوفق الى العثور على هذه القصائد او المقالات — وقد دلت مقالاتك المنشورة اخيرا في (الكتاب العربي) عن كتاب الاستاذ علي ادهم (صقر قريش) وفي (الطالبة) عن علي ادهم ... وفي (السفير) اقصوصة — على مستقبل ادبي باهر — وفي مقدورك متابعة الكتابة في الصحف والمجلات في مصر والاقطار العربية — غير مهتم بتلكؤ بعض الصحف في النشر .

نحن هنا بخير وعافية ... ولم أر القاهرة منذ عودتي منها يوم ١٩٦٦/٩/٢١ وارجو ان اراك قريبا في صحة وسلام اذا زرتنا المعادي في اواخر هذا الشهر ان شاء الله لقضاء اعياد الميلاد ورأس السنة مع ابنتي هناك وكل عام وانتم بخير ...

فالى اللقاء مع خالص المودة والوفاء . المخلص « نقولا يوسف » .

وفي ١٩٦٧/٤/٢٥ ارسل الي الرسالة التالية :

اخي الاستاذ

تحيات خالصات .. وامنيات ودعوات .. تلقيت اليوم رسالتك المؤرخة في ٦٧/٤/٢١ وكنا قد تبادلنا المعايدة في عيد الاضحى المبارك — ثم مضت ايام شغلت فيها بانهاء الكتاب الذي ورد ذكره في حديث جريدة (السفير) الاسكندرية — اعني كتاب (اعلام الاسكندرية في مختلف العصور) الذي كلفت بوضعه منذ شهور وكتبته مرة ومرات وانفقت فيه خير الاوقات واجلت من اجله اعز المراسلات وكان هذا سبب التقصير في المكاتبات — ثم انتهى الامر وفات .. وانقضى العمر في التافهات — لك ايها الاخ العزيز وافر التحيات وخالص التهاني على ما قرات من مقالات ونقدات وصادق الدعوات بالعمر السعيد والعمل المجيد بالثمرات ولك في (شم النسيم) عطر التمنيات ...

والى اللقاء في اسعد الاوقات . دمت للمخلص « نقولا يوسف » .

وفي اغسطس ١٩٦٧ توجهت الى الاسكندرية مصطافا وتقابلنا كثيرا واطلعني الرجل على بعض مؤلفاته المخطوطة وكنا قد بيتنا النية على زيارة ضريح عبد الرحمن شكري الا انه لظروف ما لم تتم هذه الزيارة ، وقد التقطت لنا عدة صور على شاطىء البحر وما زلت احتفظ ببعضها واستمرت المراسلات بيننا ولكن اعترف باهمالي فقد ضاعت رسائل كثيرة مني وذات يوم تسلمت من ساعي البريد كارت مؤرخ في ١٩٦٨/٥/١١ مرسل من المعادي يقول فيه :

عزيزي الاستاذ الجليل

تحية طيبة — ارجو ان تكون في صحة وعافية — اكتب اليك من المعادي حيث ازور كريمتي وقرينها بمنزلهما الذي شرفتنا فيه مرة — واكون سعيدا لو مررت بنا لرؤيتك — وان شئت احضرت معك كتاب الشرقاوي لاتم منه بحثي عن سلامة موسى — ولنتحدث ما شئنا — لك خالص الشكر والمودة والتحية . دمت للمخلص « نقولا يوسف » .

وقد زرته للمرة الثانية في المعادي في منزل كريمته وكنا قد اتفقنا في هذه المرة على زيارة الكاتب الالمعي علي ادهم وقمت بالاعداد اللازم لاتمامها وقد تمت الزيارة فعلا واستقبلنا الاستاذ علي ادهم استقبالا كريما وتبادل الصديقان (ادهم ونقولا) ذكرياتهما عن عبد الرحمن شكري فقد كان كلاهما تلميذا له في مدرسة راس التين بالاسكندرية في العقد الثاني من هذا القرن .

وفي ربيع عام ١٩٦٩ زرته في بيته بمدينة الاسكندرية واستقبلني في مكتبته لاول مرة وراح يوضح لي اقسامها المختلفة واشار على مجموعة من قصص جالزورثي ، وقال انها هدية من عبد الرحمن شكري ، وتبادلنا الحديث على ما انكر في فن القصة وكانت امسية جميلة طويلة تبادلنا فيها وجهات النظر في مختلف الموضوعات .

وفي اغسطس من نفس العام التقينا مرات في الاسكندرية — ولا انكر اني رايت الرجل بعد ذلك وان كنا تبادلنا خطابات التهنئة في الاعياد المسيحية والاسلامية واعترف بتقصيري فقد شغلتني الحياة . وعندما علمت بنبأ موته انتابتني كآبة نفسية شملتني لايام طويلة وادركت انني فقدت استاذا وصديقا نادرا في علمه واخلاقه .

والاستاذ نقولا يوسف كغيره من ادباء جيله متعدد الجوانب فهو اديب وقصاص ومؤرخ وكاتب اجتماعي ومترجم ، ويجيد اللغة الانجليزية والفرنسية وله المام واسع باللغة اليونانية ، وله مؤلفات عديدة نذكر فيها (الفردوس) (نسمات وزوابع) ، (الحياة الجديدة) ، (الهام) ، (دنيا الناس) ، (مواكب الناس) ، (هم وهن) ، (تاريخ دمياط منذ اقدم العصور) وقام بجمع وتحقيق وتقديم ديوان شكري هذا غير ما ترجمه من الآداب العالمية الى العربية من امثال كتاب (اليابان) ، (ملخص الاوديسة) و (من الاعماق) لاوسكار وايلد (توت عنخ آمون) ومسرحية (العدالة) لجالزورثي . وسنطلع القراء في اعداد قادمة على ما تضمنته هذه الكتابات الجيدة من آراء عالية : ونقدات صحيحة ، وافكار صائبة .

ونختم الحديث عن اديبنا الراحل بكلمة للمنفلوطي جاءت في رسالة منه للاستاذ نقولا يوسف بتاريخ ٧ يناير ١٩٢٣ « ومن رزقه الله روحا قوية حساسة كروحكم وذهنا خصبا نديا كذهنكم فهو قمين ان يكون ذخيرة الامة في مستقبل حياتها فليكن هذا رايكم في نفسكم وما اعان على بلوغ ذروة العظمة مثل الثقة بالنفس » .

القاهرة — احمد حسين الطماوي

محاولات غير شهريارية

البحث عن شهرزاد

احمـد زرزور

أنا ... أنت ،
... ومصطرعان ضد الرجم ،
: كانت أول الاسفار
قريتنا السماوية
تظللنا ونحن هباءة الابوين بالافياء
ذموهـا ...
ولم نك نتقن التمحيص ... ،
فانتشرت أمام الجمر
(نيساناتنا المهداة) ..
ضيعنا قصائدها بدغوى العهر ،
ثم تفحمت في الليل شعلتنا ..
بكائيتين — انحينا — على الديجور بالتجهيل ..
يا لغباتنا في النور !

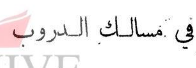
أنا ... أنت .. ،
سحلنا العطر في الساحات
وارتحنا الى الاحجار ..
وحين تناوشتنا الريح والامطار ..
كنا طعمة للموت في الفلوات
(عريانين اطمرنا)
فمنذا يشعل القلبين بالاعياد
... نبحث عنك يا ناموسنا المغمور ...
نجار منك يا قاموسنا الموشوم
بالصحف « العلائية »
ونخرق حائط الفولاذ
هذا السامق الممتد
بين الحلم والآني
نشمك في نتوء البحر
بالسفن البدائية
(رفضنا أن نجوب الكون باليخت
الذي دهنوه بالنهدين والانياب)

المنوفية — مصر

أنا .. أنت ..
وما زلنا
نشق الماء !




محمد سليم رشدان



في مسالك الدروب

بقلم محمد سليم رشدان

* * *

سؤال ينتظر جوابا

في مختلف انحاء العالم ..

يتكاثر اولئك الذين يحرصون على الحقوق المهدورة الضائعة لبني الانسان ، ويبكون على ذويها بالدموع السخينة ، وهم يتوجعون ويتفجعون ، ويرفعون الصوت جهيرا من اجل ان يرتفع ذلك الجور الماحق ، عن اولئك الذين نزل بهم .

ثم : من اجل ان يقوم التحقيق العادل النزيه ، في تحري الاسباب المفتعلة ، التي تم خلالها الاعتداء على حياة بعض الابرياء من بني الانسان .

انهم يبكون على الحقوق الضائعة ..

ثم انهم يتساءلون باللهفة والتوجع :

كيف تضيع هذه الحقوق ؟! ولماذا تضيع .. ؟! ولماذا لا ينتصر لها الاحرار جميعا في (العالم الحر) ؟!

والى جانب ذلك :

تسمع التصريحات العنيفة . وهي تطالب بحزم وعزم وشدة ، بالافراج عن المعتقلين ، والمعتقلين في سجون بعض الدول بعينها ..

بل نقرا في كثير من الصحف العالمية :

البيانات المطولة ، وهي تطالب بانصاف ذلك النفر من المعتقلين والافراج عنهم فورا من تلك السجون الرهيبة ، والا فان الاحرار — وفي العالم الحر طبعا ! — لن يسكتوا على امتهان تلك الحقوق المهدورة .

فيا للفرحة اذن ..

انها بوادر الخير ، الم تر ان الغيث يبدا قطرا ثم ينهمر ؟! الم تر انه يكون كذلك ، فاذا هو يعم الارجاء ، واذا هي تسيل به الاودية في كل مكان ؟!

فيا اخواننا المعذبين ..

ويا اخواننا في سجون الارض المحتلة بالذات ، وفي معتقلاتها الموحشة الرهيبة ، لكم البشرى ، فها هي ذي تهب عليكم نسائم الانسانية الرحيمة ، ولن تبعد بكم الايام ، حتى ترتفع من اجلكم الاصوات جهيرة عالية ، وهي تدوي في الدفاع عن حقوقكم المهدورة ..

الستم من بني الانسان ؟!

ان الدعوة التي نسمعها هي في الدفاع عن حقوق بني الانسان ، التي هدرها الهادرون ، وتجاوز عليها المعتدون .

ولقد اصابكم من العدوان ما يفوق الوصف ، فعذب منكم من عذب ، وابعد منكم من ابعد ، واخرج منكم الكثيرون من ديارهم ، وطردوا من ارضهم ، وفي ذلك كله ما يثير الضمير العالمي ويؤرقه ، ويستنزف الدمع من مآقيه ، على نحو ما راينا منه ، وسمعنا عنه ، حيال ما اصاب المعتقلين في بعض الدول وفي بعض جهات من العالم .. !!

ويظل هناك سؤال ينتظر جوابا :

ترى ، هل يعتبركم اصحاب هذه الضمائر المستيقظة من بني الانسان حقا ؟!

ارجو ان تكونوا كذلك ، لكي تتجه نحوكم الابصار !!

صورة من اخلاقنا

في بث الاذاعة المباشر في الاردن :

ينقلونك — فجاة — وانت مسترسل في سماع اغنية او معزوفة ، الى واقع الحياة من حولك ، فاذا انت مع مسؤول في التربية — مثلا — يحدثك عن التعليم والمعلمين ،

وما يحيط ذلك من مشاكل ، وما يترقبه من حلول وتطلعات . او اذا انت مع مسؤول في إمانة العاصمة ، يحدثك عما تبذله الامانة من جهد ، في سبيل خدمة الآخرين من ابناء الجمهور ، وما يقابلها به هؤلاء الآخرون من اهمال وتفريط وقلة تعاون ، او اذا انت مع مسؤول في دائرة السير ، يتحدث اليك عن الاخطاء المميتة ، التي يصر على ارتكابها الكثيرون ممن يمارسون قيادة السيارات ، فيعاني منها جمهور المواطنين ما تتحدث عنه الصحف كل يوم ..

اجل ، إنهم في البث المباشر في الاردن :

ينقلونك فجاة — كما قلت لك — الى مثل هذا ، فاذا هم يتحولون بك من الخيال الى الواقع ، بكل ما في هذا الواقع من حقيقة ، كثيراً ما تضيق الخناق على من يفرط فيها ، او يتعمد تجاهلها ، فاذا هي تجرحه وتؤذيه .. !

وفي هذا البث المباشر منذ ايام :

كانوا ينتقلون بالمستمعين الى دائرة الاحوال المدنية ، واذا مدير الدائرة هناك هو الذي يجيب على ما توجهه الاذاعة من الاسئلة ، فيرشد به المستمعين الى ايسر الطرق للحصول على دفتر العائلة ، ويبين الحلول لكثير من المشاكل التي تعترض المواطن ، عند اثبات الزواج والميلاد ، حين يتمان بعيدا عن القيود الرسمية في القرى النائية ، وفي الارياف والبوادي .

حدثهم عن ذلك كله ، وكان يجيب به على الاسئلة التي توجهها الاذاعة ، وكله في حدود المألوف ، الذي لا يثير عجبا ولا يستدعي تساؤلا .

وفجأة سمعت موظف الاذاعة يسأل :

« يقولون — يا سيدي المدير — ان الموظفين عندكم يضيقون ذرعا بالمواطنين ويردون عليهم بنزق ونفاد صبر ، وينتهرونهم على نحو يثير الاستغراب ، ويدعو الى الدهشة والاشفاق ..

يقولون هذا وشيئا من مثله ، فما قولك فيه هل تؤيده او تنفيه ؟! » .

وهنا قال المدير مجيبا :

لست مع الموظفين في مكاتبهم ، حتى اجيب عن يقين ومعرفة ومشاهدة ، ولكن ما دام الامر قد تحدث به الناس حتى وصل اليكم ، فهو اذن شيء لا استطيع نفيه ، كما انني لا استطيع انتزاعه من نفوس هؤلاء الموظفين ، ما دمت لا اقف شاهدا عليهم ، وهم يمارسون اعمالهم مع الجمهور ..

ولكن بقي ان اسالك انا في هذه المرة :

اليست هذه الصفات هي بعض اخلاق بلدنا التي يتصف بها الكثيرون من المواطنين في البيت والشارع والمجتمع ؟ ثم اليس هؤلاء الموظفون هم بعض النسخ الحية من هذه الاخلاق ؟! فما حيلتي بهم اذن ؟!

لو عرفوا منذ نعومة اظفارهم :

ان خدمة المواطنين باخلاص هي الواجب الذي يحتمه المجتمع على المواطن الصالح ، وان تقديم العون للآخرين عند الاستطاعة ، هو الضريبة التي تحتمها الانسانية على ابنائها جميعا .

لو عرفوا ذلك واستوعبوه في بيوتهم منذ نشأتهم الاولى ، لقاموا بادائه للآخرين دون ان ينبههم اليه احد ، وهم يتربعون في كراسي الوظيفة يقضون للناس مصالحهم .

هكذا قال مدير دائرة الاحوال المدنية ..

قال ذلك — او ما هو بمعناه — وكان صادقا فيه كل الصدق ، وبقي ان يعرفه الآباء والامهات عندنا في الوطن العربي الكبير ، لكي ينشئوا ابناءهم وبناتهم عليه منذ الصغر ..

وحبذا لو يفعلون ..

كتاب من المانيا

المستشرق الالماني المعروف بروكلمان ..

الف كتابا قيما في الادب العربي ، واعتبره الباحثون اهم واكمل مرجع لهذا الادب في غير العربية ، واعتمده الكثيرون منهم في ابحاثهم وفي دراساتهم ، وكان جديرا بمثل هذا التقدير .

ولقد اراد اديب من ابناء العربية ان يرد هذا الدين ، فألف كتابا قيما في العربية عن تاريخ الادب الالماني ، وذلك من اجل ان يكون مرجعا للدارسين من ابناء العربية ، وقدم منه نسخة للجامعة الاردنية ، ليكون في متناول طلابها واساتذتها ، وارجو ان يكون قد فعل مثل ذلك ، وقدمه لجامعات : بغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، وتونس ، باعتبارها من الجامعات العريقة في الوطن العربي .

ان مؤلف هذا الكتاب هو الدكتور حمدي الخياط ..

ولقد سد كتابه فراغا في المكتبة العربية ، فما احوجنا الى ان نطلع على تراث غيرنا من الامم ، وفي لغتنا العربية ، وبخاصة تلك الامم العريقة ، من مثل الامة الالمانية .

ويتألف الكتاب من خمسة فصول ، الفصل الاول منها يتحدث عن العهد الجرماني القديم ، وعن اللغة الالمانية الفصحى ، وفي هذا الفصل يتحدث عن الشعر الجرماني قبل ميلاد السيد المسيح ، ثم يتحدث عن الشعر الجرماني قبل هجرة الشعوب ، ثم يتحدث عن الشعر الجرماني

المدفع المحموم

طلع الفجر فهيا نرشف الطل النمير
ونروي القلب من نبع على دفق الخرير
غرد العصفور صبحا يشكر الرب القدير
كل ما في الكون حلو يدهش العقل الكبير
هل سمعنا او وعينا الحب يا اهل الضمير
هذه الدنيا هباء زائل ضمن الحفير
فعلى م الجور والقتل ونهب المستجير
ادوي المدفع المحموم يروي ظما القلب الحقير
ودماء سفكها ثم وقدح وزفير
يا رصاص الغدر اصمت وصواريخ الضرير
كلنا نبغي حياة الحب في اليوم المنير
حبذا لبنان عيد اخضر العود نضير
يالي السعد عودي في هنا خير وفير
واسمعي لحنا جميلا انه لحن مثير

عيسى ميخائيل سابا

تحت تأثير المسيحية الاولى ، واخيرا يتحدث عن الشعر في نهاية عهد اللغة الالمانية الفصحى القديم .

ويتحدث الفصل الثاني عن عهد اللغة الالمانية الفصحى المتوسط ، وعن شعر الزهد في عهد الاصلاح ، ثم عن ملاحم شعر الفرسان ، ثم عن عصر ازدهار اللغة الالمانية الفصحى في العهد المتوسط ، ثم عن ملاحم الابطال ، ثم عن ملحمة البلاط ، ثم عن شعراء الغزل ، ثم عن الشعر البطولي في قصور الملوك والامراء ، ثم عن انحطاط شعر الفرسان الغزلي ، ثم عن شعر الدراما التمثيلي ، ثم عن الاناشيد الشعبية .

ويتحدث في الفصل الثالث عن عهد الالمانية الفصحى الجديد ، ثم عن الشعر في عهد الاصلاح الديني ، ثم عن نقد الشعر ، ثم عن الكتب الشعبية في عهد الاصلاح ، ثم عن الفرق التمثيلية في المانيا ، ثم عن الجمعيات اللغوية ، ثم عن المدارس الشعرية ، ثم عن الشعر في عهد الوعي ، ثم عن ادباء الحماسة ، ثم يتحدث عن جوته ومؤلفاته ، وعن شيللر ومؤلفاته ، ثم يتحدث عن العهد الرومانتيكي ، والقصة والحكاية ، واخيرا يتحدث عن شعر العمال والشعر الاقليمي .

ويتحدث في الفصل الرابع : عن الشعر الالماني في القرن الحالي ، ثم عن الشعر الوجداني ، ثم عن الرواية والقصة ، ثم يتحدث عن عدد كبير من الشعراء والادباء والقصاصين ، ويترجم لهم ، ويأتي على ذكر مؤلفاتهم المختلفة في مواضيعها المتعددة .

ويتحدث في الفصل الخامس : عن الادب الالماني خلال النصف الاخير من هذا القرن ، ويترجم لعدد كبير من الادباء والشعراء الذين برزوا فيه ، ثم يتحدث عن الدراما ، ويترجم لعدد من الادباء الذين لمعوا في هذا المجال . ثم يتحدث عن الرواية والقصة ، ويترجم للبارزين ممن كانت لهم آثار معروفة فيهما ، ويتحدث عما تركوه من آثار مطبوعة .

ذلك هو كتاب : « تاريخ الادب الالماني » .

ولقد وضعته للقارىء في تعريف خاطف ، وان مثل هذا التعريف لا ينصف الجهد الكبير الذي بذله مؤلفه الدكتور حمدي الخياط ، استاذ اللغة العربية وآدابها في (جامعة كولونيا) العريقة .

والكتاب جدير بأن يقرأ لما فيه من حقائق لها قيمتها . وهو يقع في نحو اربع مئة صفحة كبيرة . وفي هوامشه الكثير من التعليقات التي توضح وتعلل وتبين الاسباب لكل غامض فيه .

عمان — الاردن
ص.ب (١٧٥٥)
محمد سليم رشدان

مولانا محمد علي الزعيم الهندي

١٨٧٨ — ١٩٣١

بقلم عجاج نويهض

* * *

علمنا من الفصل السابق في « الاديب » الشهر الماضي ، شيئا مقتضبا عن كيفية نشوء الصلة الاسلامية ، سياسيا واجتماعيا ، بين الهند وفلسطين في سني العقد الثالث من هذا القرن ، بسبب مشروع عمارة المسجد الاقصى المبارك ، وارسال زعيم فلسطين الحاج محمد امين الحسيني رئيس المجلس الاسلامي الاعلى رحمه الله ، وفدا اسلاميا فلسطينيا الى الهند لجمع الاعانات المالية للمشروع ، وهو اسلامي عالمي ، وكانت الزعامة الاسلامية في الهند وقتها معقودة اللواء لرهط مجرب يسمى « لجنة الخلافة » يتقدمهم مولانا محمد علي الذي كان قبل ٤ سنين « رئيسا لوفد لجنة الخلافة ١٩١٩ » وهو الوفد الذي ذهب الى لندن محتجا باسم مسلمي الهند على تقسيم تركيا وذلك قبل ان يظهر مصطفى كمال.

وعلمنا ايضا من الفصل السابق ، ان اللقاء الاول بين السيد الحسيني وزعماء الهند قد تم في المؤتمر الاسلامي العالمي في مكة المكرمة سنة ١٩٢٦ وعلمنا ايضا قصة زيارة مولانا محمد علي لفلسطين سنة ١٩٣١ الزيارة التي تمت عن طريق طبريا وانف الانكليز راغم على ما سبق بيانه . ولعل القارىء الكريم يذكر الخطبة التي خطبها محمد علي في منزل سماحة السيد الحسيني على جماهير جمة ، تناول فيها عرى الاخوة الاسلامية حول فلسطين . ومن جملة ما وقع الاتفاق عليه بين الحسيني ومحمد علي في خلوات الابحاث بينهما ، ما يتعلق بعقد مؤتمر اسلامي عالمي في القدس ، بجوار الحرم في تلك ١٩٣١ على ان يحضره مولانا محمد علي ومعه وفد اسلامي هندي يمثل مسلمي الهند اجمع . وهذا المؤتمر المفكر فيه في القدس الآن ١٩٣١ كان قد بحث فيه بين الحسيني ووفد لجنة الخلافة في مؤتمر مكة ١٩٢٦ . والاثنان كانا رحمهما الله يرميان عن قوى واحدة لغرض واحد هو فلسطين الغالية .

وكانت الحكومة البريطانية في ذلك الوقت تعالج قضية الهند كلها ، وتطرح طريقة «مؤتمر المائدة المستديرة» جمعاء لزعماء الهنادك والمسلمين وغيرهم . فاتفق الاخوان الحبيبان الحسيني ومحمد علي على ان يكون عقد المؤتمر الاسلامي العالمي في القدس لا يتعارض مع « مؤتمر المائدة المستديرة » في لندن من حيث الزمان والاوان(١) .

في نوفمبر ١٩٣٠ وردت برقية من مولانا محمد علي في الهند الى السيد الحسيني مآلها انه سيلبي دعوة الحكومة البريطانية الى مؤتمر المائدة المستديرة ، ولذلك لن يكون بوسعه أن يجتمع بالسيد الحسيني لضيق الوقت ، فاذا كان هناك امور تحتاج الى مزيد من التفاهم حولها بشأن المؤتمر الاسلامي المقبل ، فليتفضل سماحته بايفاد مندوب من قبله يوافيه الى مصر ويلاقيه في اثناء عبور الباخرة ترعة السويس والباخرة متجهة الى لندن .

فندبني سماحة الحسيني الى هذا وزودني بتعليمات كافية . وكان العالم كله وقتها جعل يتطلع الى لندن ، وكان غندي في ازدهار زعامته ونفوذه ، والهنادك يطيعونه حتى الموت . وكانت فكرة مستقبل مسلمي الهند تجول في خواطر القادة المسلمين جولانا ذهبيا وهاجا ، فهم يعلمون ان السير والهنادك في قافلة واحدة ، في المستقبل امر عسير لما بين الثقافتين وينابيعهما من فروق عميقة . ومن ذلك الحين كانت فكرة الدولة الاسلامية في الهند ، منفصلة عن الهنادك (جماعات غندي) تراود اذهان القادة المسلمين ، وهي الدولة التي كانت بعد عقدين من السنين باكستان (الارض الطاهرة) .

لما وصلت السويس ، وانا مدرك قيمة الوقت في المهمة التي انا ذاهب من اجلها ، ذهبت مساء الى الفندق الذي نزلنا فيه سنة ١٩٢٦ لما كنا ذاهبين للحج ولحضور المؤتمر الاسلامي العالمي الذي دعا اليه الملك عبد العزيز الفيصل بعيد استيلائه على الحجاز ، وكان الحج والمؤتمر سنة ١٩٢٦ واتفقت مع مدير الفندق ، على ان يذهب معي بنفسه الى الدائرة المختصة لأنال رخصة او اذنا بدخول الباخرة فكتوريا التي ستكون في الصباح راسية في المرفأ او باب المعبر الى الترعة ، وافهمت مدير الفندق اني اذا لم انل الرخصة لدخول الباخرة او الصعود اليها فتكون مهمتي قد اخفقت . وكان هذا الرجل قد عرف سماحة الحسيني المفتي في طريقنا الى الحجاز قبلا ، وانا ايضا كنت قد عرفته جيدا ، فخروجه معي في الصباح الباكر ، نحو السادسة ، كان نعم العون حقا . ولكن كنت انتظر

---

(١) لا باس ان نلاحظ ان « مؤتمر المائدة المستديرة » في لندن بين نوفمبر ١٩٣٠ وديسمبر ١٩٣٢ عقد ثلاث مرات هذه تواريخها :

الاول — نوفمبر ١٩٣٠ — يناير ١٩٣١

الثاني — اوكتوبر — ديسمبر ١٩٣١

الثالث — نوفمبر — ديسمبر ١٩٣٢

ووفاة مولانا محمد علي في « مؤتمر المائدة المستديرة » في لندن كان في اثناء المؤتمر الاول وفي آخر ١٩٣١ عقد المؤتمر الاسلامي العالمي في القدس .

العون ايضا من صديق طبيب لبناني يعمل في دائرة الصحة في القسم المتعلق بالميناء او المرفأ هو الدكتور سعيد طليع : وهو صديقي من ايام حكومة فيصل بن الحسين في دمشق من خريف ١٩١٨ ــ آخر تموز ١٩٢٠ ولكن الدكتور طليع لا فائدة منه قبل الوصول اليه ، وما كنت لقيته منذ انحلال حكومة فيصل في دمشق ، سوى مرة زار فيها القدس سنة ١٩٢٥ ليكون بقرب قريبه المريض ، رشيد طليع احد وزراء فيصل ووالي حلب لما هاجم غورو سوريا وصديقه الحميم ابراهيم هنانو وكان يعمل معه في ولاية حلب ، ورشيد طليع كان رئيس حزب الاستقلال المنبثق من « العربية الفتاة » ، وهو اول من الف اول حكومة عربية في عمان سنة ١٩٢١ بعيد مقدم الملك (الامير وقتئذ) عبدالله من مكة .

فلما انتهت مهمة مدير الفندق معي وسمح لنا بدخول تلك السراي المستطيلة تركني عند المدخل الاول ورجع فشكرته . والآن قاربت الساعة السابعة فاجتزت اول نطاق من الحرس وسألتهم عن الدكتور طليع فقالوا في الطابق الاعلى ، فجئت النطاق الثاني وهو على درج اعلى من الاول فاجتزته وسألت الحرس عن رئيس الاطباء الدكتور طليع (يلقبونه باش طبيب) فقالوا في الطابق الثاني الاعلى فجئت هذا الطابق الاعلى فوجدته واسعا مستطيلا على هندسة المستشفيات الضخمة الكبيرة . لم يبق حرس امامي اجتازه ، فهذا الذي اجتازه الآن هو الثالث والاخير ، فقلت لهذا الحرس : هنا الدكتور طليع ؟ قالوا نعم ، وهناك هناك الى هذا الجانب غرفته وهو نائم ، فرجوت من الحرس ان يتفضل احدهم بان يمشي معي قليلا حتى يمكنني معرفة الغرفة عن كثب ، فمشى معي مسافة ما ثم اشار بيده الى الغرفة ورجع .

فتقدمت حتى انتهيت الى هذه الغرفة ، فوجدت بابها الكبير العالي مفتوحا ، وفيها تخت واحد فيه شخص نائم . ولم يكن في ذلك الممشى الطويل احد من الموظفين والحراس اصبحوا في الخارج على مداخل الدرج طابقا طابقا . وكان معي عصا حسب عادتي ، ومن حبي سرعة الوصول الى الدكتور طليع ، ولاعتقادي ان الدكتور طليع هو هذا النائم هنا في هذا السرير ؛ ولكن وجهه كله غير ظاهر منه شيء ، اذ يغطيه الشرشف او اللحاف ، فقد تراءى لي ان اوقظه عن طريق طرفي قدميه المبسوطتين في السرير خارج الشرشف ، ولكني مع ملاحظتي ان هذين القدمين كبيرتان جدا ، وطليع قصير القامة ، لم انتبه لهذه المسالة ، فاذا بي دون اية مناداة مني ، ودون اية حركة ينبعث منها صوت ، ضربت هاتين القدمين بالعصا ، طبعا لا ضربة موجعة ، بل ضربة صديق مشتاق الى صديقه ، وفي رعشة عين انتفض هذا النائم من ضربة. الرجلين من ناحية القدمين ، واطاح بالشرشف جانبا ، واستوى في سريره ، وسألني قل من انت ، وهو مستعد للغضب : لولا علمه ان الوصول الى هنا لا يمكن ان يقع ، الا بعد مرور ثلاث حلقات من الحرس المسلح ، وهذا بداهة معناه اني لست قاصدا شرا . ولكني وفقت في اني بادرته بالقول بكل طمانينة وتؤدة اني قادم لارى الباش طبيب طليع وهو صديقي ، فارجو منك ان تقبل معذرتي وتستمع الى قصتي . . . فاني في صدد مهمة دقيقة وقد يهمك امرها .

فهدأ فورا وقال : ان الباش طبيب طليع قد نقل الى الاسكندرية بالتلفون هذه الليلة ، فوصلت انا في منتصف الليل وتسلمت منه الادارة وذهب هو فورا حسب التعليمات السريعة . فشكرته شكرا ايقن انه من صميم فؤادي ، وبينت له الغاية من مجيئي لأرى مولانا محمد علي الزعيم الهندي في الباخرة البريطانية الى لندن ، قبل ان تدخل الباخرة القناة . فلما استوعب كل هذا مني ، نهض من السرير فاذا به عملاق طولا وعرضا وبسطة جسم . وفي نحو الثامنة كان الاذن لي بالصعود الى الباخرة قد انهاه بعد المخابرات الضرورية وسلمني اياه . فلما جئت اكرر شكري له قلت له : متى ما علم الدكتور(٢) بهذا الحادث بيني وبينك هذا الصباح ارجو منك الا تنسى ان تسترعي انتباهه الى الفرق في المساحة بين جسميكما . وودعته وذهبت الى المرفأ متجها الى الباخرة .

لما سألت المسؤولين عن مولانا محمد علي ، قيل لي انه على سطح الباخرة الآن ، في فراشه هناك ، فلما جئت اصعد السلالم واعرج على مشاهد بهرتني من العظمة والفخفخة ، وما كنت في حياتي من قبل داخلا باخرة مثل هذه ، فخطر ببالي ما لسفر البحر عند الانكليز من شأن وابهة ، وبعض كتاب القصص منهم يكتبون اعجب قصصهم وهم في عرض المحيطات بين الزرقتين . وقيل لي ان الباخرة فكتوريا هذه هي من اروع ما انتجته صناعة البواخر في العصر الحديث عند الانكليز . ولكني وانا في هذه الطريق

---

(٢) كان الدكتور سعيد طليع قصير القامة ، وهو من اعضاء المؤتمر السوري (١٩١٩ ــ ١٩٢٠) في دمشق ممثلا جبل لبنان في المؤتمر وكان من لوالبه نشاطا وحركة ، وكان مقربا من فيصل اميرا وملكا (ملكا من ٨ آذار ١٩٢٠ الى آخر تموز ١٩٢٠) ووقت مجيء لجنة « كراين » الاميركية ١٩١٩ الى سوريا وفلسطين ، كان الدكتور سعيد من يعاسيب الحركة الوطنية التي قدمت المطالب القومية الى اللجنة ، وهي لجنة استفتاء اقترحها الدكتور ويلسون الاميركي في مؤتمر الصلح للوقوف على آراء اهل البلاد في سوريا وفلسطين والعراق ، ولكن كليمنصو رئيس الوزارة الفرنسية ولويد جورج رئيس الوزارة البريطانية تخليا عن ويلسون لمصلحة تطبيق المعاهدة السرية بينهما وهي اتفاق « سايكس ــ بيكو » فاقتصر استفتاء اللجنة بالتالي على سوريا وفلسطين ولبنان . ومن آثار الدكتور طليع الجميلة انه جمع رسوم اعضاء المؤتمر ورتبها لوحة يظهر الملك فيصل في وسط صدرها الاعلى ، وطبعت هذه اللوحة وزعت ثم ادرجت في بعض كتب التاريخ والمجلات . والدكتور سعيد طليع خريج الجامعة الاميركية في بيروت وهو من قرية « الجديدة » ــ الشوف ، لبنان في طريق المسافر من بعقلين الى المختارة . وله تمثال في قريته هذه يراه المسافر بالسيارة تحت الطريق ..

الخلابة الى مولانا محمد علي : حرت في نفسي على اي مشهد سألقاه بعد هنيهة ، وقلبي صارت ضرباته عنيفة . وبالتالي انفتح الافق امام عيني ، فوجدت سطح الترعة الى جانبي ، وسطح الباخرة الكبرى لا يقل بمساحته عن ميدان سباق .

ولما استويت على سطح الباخرة ، سمحت لنظري ان تتخطفه المناظر الساحرة ، وانا امسيت شبه ضائع ؛ ولكن نبض قلبي ودقاته لم يزل كل ذلك شديدا . وليس معي احد ، لا من الركاب ولا من ربابنة الباخرة وخدمها وموظفيها فهي مدينة عائمة . فوقفت مكاني اتلفت يمنة ويسرة . واذا بشبح ابيض ، هناك هناك ، قرب حافة سطح الباخرة ، يتحرك ، ولا صوت ، ولا حركة ، ولا تسمع على سطح الباخرة شيئا من ضجيج الدنيا الذي في قلبها . فاخذت اتجه نحو الشبح الابيض وقطعت انه هو هو . مولانا محمد علي ، فلما ازداد اقترابي ايقنت اني واصل اليه ، وشعوري ، لا ادري انا ماش على سطح الباخرة مشيا طبيعيا بجسمي ووزني ، ام محمول في الهواء ولا اعرف بعد قليل اين مستقري .

واذا بصوت كانه هابط من السماء !! يناديني باسمي كما كان يناديني في مكة سنة ١٩٢٦ ، وفي دمشق والقدس ١٩٣٠ ، هو صوت مولانا محمد علي !! كان جالسا في الفراش على سطح الباخرة الخشبي ، من تحت رأسه المخدات ، ووراءها المساند ، والفراش وما عليه من شراشف كل ذلك ابيض كانه اقحوان . فلما دنوت منه ، وايقنت اني اصبحت بين يديه ، ولم اشبع من عناقه ، جعلت استفسر منه عن عافيته وحالته الصحية ، فكان يجيبني اجابات مؤمن ، تقطر ثقة بالله ورحمته ، ولكن لا تطمئن انه يسرح ويمرح في جو نفسي يرجو البقاء بعد ، طويلا في الدنيا .

واشرح الامر ليتبين القارىء من هو مولانا محمد علي ساعة كنت بين يديه على سطح الباخرة فكتوريا في السويس في طريقه الى « مؤتمر المائدة المستديرة » في لندن لبحث مستقبل الهند والهند تكاد تكون قارة بنفسها ، لكثرة اجناسها وطوائفها وعقائدها وفلسفاتها ، القديمة والحديثة ، من بوذا الى غندي .

انهيت اليه كل ما يتعلق بأمر عقد المؤتمر الاسلامي العالمي في القدس ، وكل ملاحظات السيد الحسيني في هذا الصدد ، فاعطاني الاجوبة التي سجلت لبابها وصفوتها في دفتر جيبي لانقلها الى السيد الحسيني ، وخلاصة الخلاصة انه من جهته حريص الحرص كله على ان يحضر المؤتمر ليسجل فيه صوت مسلمي الهند الطالب اسقاط الانتداب والصهيونية . ويتوقف هذا كله على نقطتين : كيف تجري الرياح بسفينة المؤتمر ، هذا اولا ، وثانيا امر صحته ؛ فان اطباءه لم يشجعوه على هذه الرحلة ولكنه هو آثر المضي بالعمل على كل حال متكلا عليه تعالى .

بعد ان فرغنا من مسألة المؤتمر حدثني — والآن لثاني مرة ؛ اذ كان قد سبق له مثل هذا الحديث في مكة المكرمة قبل خمس سنين — عن مسألتين عظميين يجب ان يحققهما في حياته ، اولا : ادخال حروفنا العربية هذه الى الهند ، لتحل محل الكتابة الحجرية الصحفية ، فيصبح العالم الاسلامي يستعمل طرازا واحدا من الحروف ، وثانيا في الهند عشرات الملايين من اهل الطبقات المنبوذين يقال لهم (الباريا) من الهنادك يريدون الانتقال الى الاسلام دفعة واحدة . فنحن نرحب بهذا ، ولكن الهنادك وعلى راسهم غندي لا يريدون ذلك ، ونحن لا نريد الخلاف مع غندي خلافا ناشئا عن هذه القضية .

وفي اثناء وجودي بين يديه جالسا على جانب من الفراش كل هذه الجلسة ، التفت بغير قصد فرأيت «بقجة» بيضاء معقودة ، كاية بقجة تراها في المنازل والبيوت وهي من الخارج مزينة بعروق خضراء من على الدائر تكسبها جمالا فنيا ، ومحل البقجة الى يمينه على محاذاة راسه فاذا مد يده تناولها اذا اراد . فتعجبت اول للامر من ان هذه البقجة ، مهما يكن فيها ، اما كان الاولى ان تكون في حقيبة ؟ ثم لفت نظري من امرها انها ربما لا تشتمل على شيء من اللباس كالقميص وما اشبه . ثم قلت في نفسي : لو لم يكن مولانا محمد علي حريصا على هذه البقجة جدا ، لما كانت معه في جانب فراشه على سطح الباخرة ، وكبر علي اول هذه الحالة ان اسأله ما هذه البقجة يا مولانا . ولكن لما وجدتني كثير الالتفات والنظر الى البقجة ، مع استمرار الحديث معه بشأن انتقال المنبوذين في الهند الى الاسلام ، عدت لا اطيق البقاء على حيرتي فسألته : عندنا هنا في بلاد العرب نسمي هذه الصرة بقجة وهي غير عربية ، واحببت الدخول عليه من هذه الناحية اولا لاتدرج منها الى سؤاله ما في هذه البقجة يا مولانا . وبالتالي سألته .

فوضع يده اللينة عليها ، وراح يتحسسها بنعومة ورفق ، كما تفعل الام في افراغ حنانها على شعر طفلها ، وقال بصوت هادىء ، كأن الباخرة فكتوريا قد جمدت في الماء لتسمعه خاشعة :

« هذا كفني من قطن الهند ، يرافقني في رحلتي ، فاذا توفاني الله في الغربة ، فيكون كفني حاضرا معي اذ لا اريد ان اكفن بغير قطن الهند اينما وافاني اجلي » .

والسماء صافية كعين الديك ، قال لي هذا وهو يعلم علم اليقين ما توقده كلماته الايمانية هذه من نار محرقة في نفسي ، فاخذ يتطلع الى السماء ، مغمضا عينيه وكانه دخل في توسل وضراعات للخالق جل وعلا ، مبقيا يده الناعمة على البقجة يهدهدها بحركات خفيفة شبه الدبيب ، فملت الى وجهه المنير وقبلته من الخدين وقلت له : مولانا

محمد علي : ارجو منك ان تعذرني . فاشعر كأن لساني قد عقد ، وكل ما استطيع ان اقوله اني ادعوه تعالى ان يحفظك للهند وفلسطين والعالم الاسلامي ، وان شاء الله تحضر المؤتمر الإسلامي العالمي في القدس بوقته هذه السنة ١٩٣١ ومعك وفد الهند الذي كان بمكة . وهذه البقجة الطاهرة الاقحوانية هي عائدة معك الى الهند ان شاء الله . فقال لي بصوت ملائكي : المسلم لا يخاف الموت وكررها(٣)!! فقبلته تقبيلا وداعيا ، ونهضت ودمعي حجب عن نظري الرؤية ؛ واخذت اتراجع القهقرى ووجهي اليه ، وهو رافع يديه الاثنتين ، ولا احد على ظهر السفينة غيرنا ، وذلك السطح من كبره واتساعه كأنه قطعة من صحراء ، حتى توارى وجهه عني وانا في التقهقر ، تواري الشمس في المغيب والغروب .

واخذت نفسي تعتلج وانا نازل من السفينة . واخذت صور مولانا محمد علي تمر كالمواكب النورانية امام عيني . فرددته الى العصر الاول ، فبدا لي كأحد الصحابة عليهم رضوان الله . ورددته الى قواد الفتوح الاولى ، فلاح لي كأنه قادم من اليرموك او القادسية ، ورددته الى صنوف العلماء المسلمين في القرون الاولى فرأيته فيها العالم المسلم، كلمته في الحق اقطع من السيف البتار . ورددته الى عالم اليوم الحاضر ونسميه عالم السياسة فوجدت نظراءه وامثاله ثلة قليلة . وقفلت من السويس راجعا الى القدس فقدمت تقريرا في مهمتي الى سماحة رئيس المجلس الاسلامي الاعلى ، وهذا رسمي ، وتقريرا خاصا لسماحته فيما يتعلق بالبقجة المترجمة عن نفسيته الروحانية .

اما مولانا شوكت علي ، اخو مولانا محمد علي ، فلم اره في السويس ولا اذكر الآن شيئا عن طريقة سفره الى مؤتمر المائدة المستديرة ، ولكني اكاد اجزم انه كان اسبق في السفر او متأخرا فيه اذ لو كان مسافرا في الباخرة فكتوريا لكان حتما علي ان اراه .

وانعقد « مؤتمر المائدة المستديرة » في لندن وجعل مولانا محمد علي يلعب دوره مع اخوانه من كبار زعماء الهند المسلمين ، وفي اثناء المؤتمر نفذ قضاء الله في البطل الاسد ، مولانا محمد علي ، وكفن بكفنه الابيض الذي كان رفيقه في البقجة ، وانتشر نعيه في العالم كله ، فوجف قلب الهند وقلب العالم الاسلامي لنعيه ، وكان الارض والسماء ترددان : انا لله وانا اليه راجعون . ووصلت برقية النبأ بوفاته من مولانا شوكت علي في لندن ، الى سماحة الحاج محمد امين الحسيني رئيس المجلس الاسلامي الاعلى ومفتي فلسطين الاكبر تنعي الفقيد العظيم فقيد الاسلام وصديق فلسطين ، من على المآذن حول الحرم الشريف . وانفذت الاوامر إلى جميع انحاء فلسطين باذاعة النعي من على المآذن واقامة صلاة الغائب .

ذكرت في فصولي الستة التي وضعتها في هذا الزعيم الملهم الحاج محمد أمين الحسيني تتضمن سيرته العامة ومآثره الكبرى العمرانية والثقافية في فلسطين ونشرت في « الاديب »(٤) سنة ١٩٧٥ ان من جملة ما وهبه الله تعالى مضاء العزم مضاء كهربائيا ، الى صحة الرؤية وبعدها . والاعتصام بنور الحق ، وهذه الصفة فيه لانها فطرية وهي من شمائله ، فقد اتسع تجليها بعد توليه الافتاء ورياسة المجلس الاسلامي الاعلى . وصداقته مع مولانا محمد علي واخيه شوكت علي بدأت في مؤتمر العالم الاسلامي في مكة المكرمة ١٩٢٦ (راجع مقالات سيرته المذكورة في الحاشية آنفا) وكان المفتي يأمل خيرا كثيرا من اخواننا مسلمي الهند في نصرة المسلمين . وكان الملك حسين بن علي قد دفن في جوار الحرم القدسي في السنة الماضية ايماء الى تعلق العالم الاسلامي بفلسطين .

فلما وصلت برقية نعي مولانا محمد علي ، طبعا كان لها الوقع الشديد العميق الغني عن الوصف . فالفقيد المسلم العظيم قبل سنة زار القدس لاول مرة وصلى في المسجد الاقصى ومسجد قبة الصخرة المباركين ، وكان يرجى ان يكون في المؤتمر الاسلامي هذه السنة (١٩٣١) فما اكبر خسارة الاسلام بفقده !

تركت سماحة المفتي الحسيني في مكتبه ، والناس احتشدت في الحرم جماهير جماهير ، وكبار القوم والاعيان يدخلون عليه للتعزية ، ومضى على هذا حصة من الوقت . واذا به يطلبني اليه ، ولا تبعد غرفتي عن مكتبه الا نحو ١٠ امتار فجئته فورا ، فوجدت ان وفود المعزين قد خفت ، فطلب من الحاجب الا يدخل عليه احد لفترة قليلة فبقيت معه انا وحدي ولا ثالث معنا . فقام من كرسيه — وهذه كانت عادته عند نزول النوازل وتحتاج الى علاج — وجعل يمشي داخل المكتب ، وانا صامت انتظر ماذا عساه ان يقول ، ثم وقف وأمال بعمامته الى الوراء ، ثم قال : « ارى ان نبرق الى مولانا شوكت علي بالتعزية والطلب منه ان يوافق على قبول رجائنا وهو ان ينقل جثمان مولانا محمد علي ليدفن بجوار الحرم كما دفن الملك حسين السنة الماضية رحمهما الله » . قال هذا ، وقرأت في تموجات جبينه نورانية العزم ، وقلت له : ما ترونه سماحتكم يراه المسلمون جميعا . ولماذا لا يكون عندنا نوعا من «البانتيون» الاسلامي أو مرقدا لعظماء المسلمين : فقال : اكتب البرقية والاتكال على الله ، فكتبت البرقية فوافق على صورتها وارسلت الى البريد فورا . فانظر الى هذا العزم الاكبر !! لا حاجة الى استشارة احد . وبعد ٢٤ ساعة جاءت برقية

(٣) ذكر العلامة عبد الوهاب عزام في كتاب « بيام مشرق » — « رسالة الشرق » للشاعر الفيلسوف محمد اقبال (ت ١٩٣٨) ان (اقبالا) لما كان يجود بنفسه في حجر خادمه (الهي بخش) كانت آخر كلماته : « اني لا ارهب الموت ، انا مسلم ، استقبل المنية راضيا مسرورا » .

(٤) عدد ابريل ومايو ويونيو ويوليو واغسطس وسبتمبر ١٩٧٥ .

من مولانا شوكت علي مؤثرة جدا ومما يقول فيها : « سماحتكم احببتم اخي محمد علي ؛ اخاكم في الاسلام ؛ وعرفتم نضاله في سبيل فلسطين ، وتحبون ان يكون مرقده عندكم بجوار المسجد الاقصى(٥) ، فالهند تضمد جراحها وتتنازل لكم عنه ليكون صلة الوصل بيننا وبينكم رحمه الله » .

واهتمت الشقيقة مصر بمأتم مولانا محمد علي ، اهتماما واسعا من جمعية شبان المسلمين وكان يتولاها الدكتور عبد الحميد سعيد ومحب الدين الخطيب ، ورجال الادب والشعراء والصحافة وكان من الترتيب ان يصل الجثمان الى بور سعيد ثم ينقل في القطار الى القدس ؛ وشغل ماتم مولانا محمد علي العالمين العربي والاسلامي ، فكان اسبوع وصول الجثمان الى بور سعيد ونقله ودفنه بجوار الحرم ، اسبوع التاريخ حقا . وندبني السيد الحسيني ان اذهب باسم المجلس الاسلامي الاعلى الى بور سعيد فذهبت ووجدت اخواننا في مصر يقومون بكل ما يقتضى على خير الوجوه . ولقيت عبد الرحمن عزام ، لقاء واسعا ، لاول مرة وكانت الصداقة بيننا قد نبتت ونمت على يد الامير شكيب ارسلان وكتاب « حاضر العالم الاسلامي » . واما في فلسطين ، فاحتشدت في القدس الوفود من جميع الانحاء ، فرأت البلاد يوما عظيما ظهرت فيه رباطة جاش العرب والمسلمين ، وقامت قيامة الصهيونية يحتجون على ان المفتي الحاج محمد امين الحسيني يريد ان يجعل من القدس مدفنا اسلاميا لعظماء المسلمين في العالم الاسلامي !! وهذا مما يضيق الآفاق على نمو الوطن القومي اليهودي ، وسنرى بعد قليل كيف جاء الكولونيل « كيش » رئيس المكتب التنفيذي للوكالة اليهودية في القدس(٦) يأتي الى مولانا شوكت علي يعزيه .

رافق موكب الجثمان في القطار من بور سعيد الى القدس خلق كثير من مصر وفلسطين . وسكة الحديد هذه عليها ان تجتاز بعد اللد والرملة المنطقة الجبلية حتى القدس ، فما كاد القطار يبدأ في المنطقة الجبلية حتى رأينا الناس الهابطين من القدس يصلون الى محطات القطار قرب القرى ، ويتسلقون القطار على غير نظام حتى امتلأ وازدحم بمن فيه ، ثم راحوا يستمسكون بعوارض النوافذ واجسامهم مدلاة في الهواء ، ثم صعد بعضهم الى سطوح عربات القطار . وهذه مسافة من ١٥ — ٢٠ كم .

فلما وصل هذا القطار محطة القدس ، وهي غربي جنوبي المدينة والطريق الممتدة بين المحطة الى ساحة الحرم الشريف داخل المدينة القديمة لا تقل عن كيلومترين . والمحطة كأنها في برية تحيط بها غابات الزيتون ، والطريق الى الحرم الشريف ليست سهلا بل تعلو وتنخفض . واذا بالناس لا يملأون مستطيل المحطة وكفى بل ملأوا غابات الزيتون المحيطة بالمحطة ، ولما اخرج الجثمان من القطار ، وحمل على الاكف ، وجعلت هذه الامواج تتحرك ماشية نحو المدينة ، خيل للانسان كأنه في يوم الحشر . فلما وصلنا ساحة الحرم الشريف وكان العصر ، وصلي على الفقيد في المسجد الاقصى ، ثم اخرج الجثمان ووضع قرب مسجد الصخرة وهذا اعلى بسيط مبلط في فناء الحرم الذي هو ربع مساحة المدينة القديمة داخل السور . ووضعت دكة للمؤبنين الذين اذكر منهم مولانا شوكت علي والدكتور عبد الحميد سعيد باسم جمعية الشبان المسلمين وسماحة المفتي وكاتب هذه السطور(٧) .

لا بأس بشيء من الوصف لصورة المأتم وقت التابين ، فان الوقت لم يتسع للخطباء المتهيئين للتابين جميعا . اما شوكت علي فحقا كان كلامه مؤثرا ، فقال ان محمد علي اخي ، اصغر مني سنا واكبر مني علما ، فهو اخي واستاذي ، حتى ولما كنا في السجون كنت اتعلم منه وبه اقتدي .

واما الحاج امين اخوه وصفيه ، ومناجيه وحبيبه ، فوصف مولانا محمد علي بقيمه ومثله العليا في الاسلام ، ووصف نفسه البريئة الطاهرة وتعشقه الاسلام وانكبابه على خدمة فلسطين ، واشار الى عملهما معا في مؤتمر مكة سنة ١٩٢٦ وقال ان مولانا شوكت علي لما اذن لنا بان يكون مرقد اخيه مولانا محمد علي في جوار المسجد الاقصى ، فكأنه بذلك قد وافقنا على ان يكون هذا الجوار مرقدا للمجاهدين حملة اعلام الاسلام رحمه الله .

وكان الحاج امين ومولانا شوكت علي يتكلمان بصوت متهدج يقطعه الدمع السكوب . واما الدكتور عبد الحميد سعيد فوصف مولانا محمد علي بالقلعة الاسلامية الحصينة لا تؤخذ مهما اشتد عليها الحصار فهو ركن ركين في العالم الاسلامي .

وكنت اذا مددت ببصرك في ساحة الحرم ، وجدتها

---

(٥) الذي اعلمه ان اربعة دفنوا بجوار الحرم الشريف : الملك حسين بن علي ملك الحجاز قبلا (١٩٣٠) ومولانا محمد علي (١٩٣١) وموسى كاظم (باشا) الحسيني شيخ القضية (١٩٣٣) وابنه الشهيد عبد القادر الحسيني (١٩٤٨) .

(٦) جئنا على ذكر الكولونل كيش هذا في مقالنا السابق في العدد الماضي من « الاديب » .

(٧) من استطاع ان يراجع مجموعة جريدة « الجامعة العربية » لصاحبها الاديب السياسي الاستاذ منيف الحسيني (ابن شقيقة المفتي الحاج امين) فيجد فيها التفصيل الوافي لكل هذا . و « الجامعة العربية » انشئت سنة ١٩٢٧ وكانت لسان حال المفتي وداعية الى الوحدة العربية ، مستقيمة الخطة تكافح الاستعمار والصهيونية . بعد ان ابتنى الحاج امين في جهة « المنصورية » قرب بيروت ابنية كافية لسكناه العائلية الخاصة والى جنبها مكاتب جمة « للهيئة العربية العليا » التي كان هو رئيسها الوقت كله ، كان الاستاذ منيف يسكن مع عائلته بقرب منه . فلما عصفت بلبنان العاصفة ، وبعد وفاة الحاج امين الى رحمة الله سنة ١٩٧٤ ... اما الاستاذ منيف فقد انتقل الى مصر في ظروف حرجة جدا ومعه عائلته ثم عدت لا استطيع ان اتنسم اخباره حتى اليوم . وكانت بحوزته مجموعة « الجامعة العربية » هنا في مكاتب « المنصورية » وهي مجموعة ثمينة جدا لاهل الاستقصاء والبحث والمؤرخين ، فلا اعلم هل استطاع الاستاذ منيف ، المجاهد الصابر ، الكاتب الشاعر ، ان ينقذ معه هذه المجموعة ، فاذا كان قد استطاع ذلك ، فله من وراء ذلك اجر عظيم .

انتظار

يا سيد الأوس هذي الخزرج احتشدت
فانفـخ بصورك ان الحشـد ينتظـر
واقحـم بقومـك باسم الله قائدهـم
فمـا الرئاسة الا المقحـم الخطـر
واحمـل شعارك في صداق وفي ثقـة
امـا الشهادة ... او حتما سننتصر
واستخلص القدس من ايدي قراصنة
مـا كان واحدهم يجرا لـو ازدجروا

البصرة — سالم علوان الجلبي

مليئة بالجماهير ، ولم تكن قد فشت بعد عادة الرؤوس العارية فمن حولك بحر من عمائم وطرابيش وعقالات . ثم ووري مولانا محمد علي في مثواه المعد له ، تغمده الله برحماته ، والناس ينفـرط عقدها ، معظمـين مصاب الاسلام ، مكبرين خطب هذا الزعيم الامام .

وبقي مولانا شوكت علـي في القدس اياما يتلقى التعازي البرقية من ملوك العالم ورؤسائه وامرائه وحكامه، بالاضافة الى ما كان قد اتاه منها في لندن . وكان يودع كل هذا عندي في بيتي حتى اخذها يوم سافر الى الهند .

وجاءه يوما تلفون من الكولونيل كيش ، وقد مر ذكره ، يريد ان يأتي اليه معزيا — هذه ثعلبة يهودية — واتفقا على موعد في كلية « روضة المعارف الوطنية » قرب الحرم ومكاتب المجلس الاسلامي الاعلى . فأخبر مولانا شوكت علي سماحة المفتي بهذا وطلب منه ان اكون حاضرا مع شوكت علي عندما يحضر « كيش » . ولم يكن بين المجلس الاسلامي والهيئات الصهيونية الا المقاطعة والصراع السياسي ، فجاء « كيش » على الموعد وبقي اكثر من نصف ساعة وهو يحوك العبارات المتصنعة ، ويضرب على وتر الاتفاق بين العرب واليهود . فأجابه مولانا شوكت علي بعد طول اصغائه اليه : يا سيدي !! انت تتفضل بتعزيتي بفقد اخي مولانا محمد علي بهذه الزيارة فأشكرك على ذلك ، وبلغني ما كان لكم من موقف لما تقرر لدى سماحة المفتي ان يدفن اخي هنا في جوار الحرم على بعد نحو مئة متر من المكان الذي فيه نحن جالسون الآن ، ومن جهة الاتفاق بين العرب واليهود ، فاقول لك ان اخي كانت مواقفه لنصرة فلسطين العربية معلومة مشهورة ، وانا كنت اقتدي به اقتداء التلميذ بأستاذه ، مع اني اكبر منه سنا ؛ فانا اتخذ المواقف نفسها التي كان اخي يتخذها . لم يحر كيش جوابا . وانتهت الجلسة وانصرف .

بقي علينا في قصة دفن مولانا محمد علي في جوار المسجد الاقصى ان نختتم الكلام عنه بايراد رثاء احمد شوقي له رحمهما الله :

بيت على ارض الهدى وسمائه — الحق حائطه واس بنائه
الفتح من اعلامه والطهر من — اوصافه ، والقدس من اسمائه
تحنو مناكبه علي شعب الهدى — وتطل سدته على سينائه
من ذا ينازعنا مقالد بابه — وجلال سدته وطهر فنائه
ومحمد صلى على جنباته — واستقبل السمحات في ارجائه
واليوم ضم الناس مأتم ارضه — وحوى الملائك مهرجان سمائه
يا قدس هيئ من رياضك ربوة — لنزيل تربك ، واحتفل بلقائه
هو من سيوف الله جل جلاله — او من سيوف الهند عند قضائه
فتح النبي لـه مناخ براقه — ومعارج التشريف من اسرائه
بطل حقوق الشرق من احماله — وقضية الاسلام من اعبائه
لم تشـه الهند العزيزة رقة — للشرق ، او سهرا على اشيائه
وقباؤه نسـج الهنود ، فهل ترى دفنوا الزعيم مكفنا بقبائه
(النيل) يذكر في الحوادث صوته — والترك لا ينسون صدق بلائه(٨)
قل للزعيم محمد : نزل الاسى — « بالنيل » واستولى على بطحائه
فمشى اليك بجفنه وبدمعه — والى اخيك بقلبه وعزائه
نم في جوار الله ما بك غربة — في ظل بيت انت من ابنائه
الفتح — وهو قضية قدسية — يا طالما ناضلت دون لوائه
أفتى بدفنك عند سيدة القرى — مفت اراد الله في افتائه
بلد بنوه الاكرمون قصورهم — وقبورهم وقف على نزلائه
قد عشت تنصره وتمنح اهله — عونا ، فكيف تكون من غربائه

وقد آثرنا الاتيان بهذا التفصيل لاننا كنا في ايامه ومن مشاهديه ، ليبقى محفوظا بالتدوين . وتتعاقب الايام ، وقد يحدث الله القادر امرا عظيما في فلسطين ، تنقلب فيه الدواليب لمصلحة العرب المؤمنين ، وينتصر فيه سيف الحق ويهزم القوم المعتدون الضالون . ولكن الرجاء ان تتلاحم الامة العربية دولا وشعوبا وبترولا ؛ لتصبح حبلا موصولا ، تنقض به على العدو فتجعله عصفا مأكولا .

(٨) فاربط هذا ، رحم الله شوقي ومحمد علي ، بقصة البقجة ورياسته وفد لجنة الخلافة ١٩١٩ للدفاع عن الترك .

رأس المتن — لبنان — عجاج نويهض

سينفونية الحزن الرائع

مهداة الى روح المطرب عبد الحليم حافظ

عصفور في موج الشفق الموحش يزدرد
الرجفة ... عار يبحث عن أنفاس العش
وعن فلك التكوين
في اروقة الزمن ... الليل ... يسير ...
فتهرب عيناه
الى أطياف التذكار ... يغني

رعشة دفء تتوغل تطويه
تغدو ضوءا اسطوريا
يغسل منفاه بايقاع ساحر
فيبدد آبار الغربة
يسلو حظر الهمس ويرفل في حلم بري
يختطف الومضة ....
يهــرب ....
يشعل نجمات
ينسج شريان الزمن القادم

أواه ... صحارى الزمن الخرساء
ترسم لوحات جفاف وتقتل أنشودات الحلم
وأطياف الرحمه
يبحث عنها
ببيادر ليل مجنون
تعزف آفاق الصمت
تسحق ايقاع الضوء ....
وتحفر انفاق الاحزان

موت يستيقظ ... يطلق اشجار الدم
آه .. عبر اللوحات ... اطار النبض المصروع
عبر المهد ... المبتل ... الاسياف ... الموت
منفى ... يرسف في اعصار
يصمت .. فوق الجدران ... يلملم
أسمال الانفاس .. اغاني الميعاد
يطفو فوق حصار ....
يرتكب الحب وراء الحزن المسكوب
تغزوه حوافر دوامات ... آفاق ....
فيقيم طقوس الالم الفضفاض

آه تتلاشى انفاس الميلاد
تتمايل انسجة الاعوام
تتارجح اجنحة النبض
فيساقــط
كنقوش حنين
فوق مسارات العاصفة الدواره
تتوارى دون مراسم

احمد عباس

القــاهــرة

استطاع عزوز ان يرى اشباح جنود العدو ، وهي تتخبط في الظلام .. وكان ذلك بالكاد .. فقد كان هناك ضوء شاحب لقمر يحتضر ، مترنحا بين الاشجار .. ولما تبين لـه ان رفاقه لم يقوموا بأي هجوم ، اخفى المدية التي كان قد شهرها استعدادا للمشاركة في القضاء على من جثموا على صدر ارضه الطيبة .. غير ان احد جنود العدو وقـد لمحه ... ولحسن حظه انه لم يره غير ذلك الجندي الذي كان قد اشعل لـه السيجارة في اول الليـل ، فصاح فيه قائلا :

— الى اين ايها الاعرج .. ؟

— لقد اقلقتني صوت — تلك — الطلقات الطائشة ..

— ليست طائشـة ... فقـد اصطدنا حمارا ...

وخاطب نفسه في دهشة انه كيف اتلق ذلك الاعرج .. ؟ بل كاد يشد شعره ، ويهتف مستنكرا : هل كنت نائما حقا .. ؟

بينما هرع الاعرج حيث الحمار الغارق في الدماء ، وصاح بعدما تبين انه حماره :

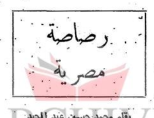
— كيف يتسنى لي حمل زوجتي المريضة ، والسفر بها .. ؟

واسر في نفسه ان خطته قد نجحت على اي حال .. وجعل يولول نادبا حظه التعس فدنا منه الجندي الذي كان قد لمحه عند خروجه ، وقال في ود يعتقد انه صادق فيه :

— لقد ازعجنا حمارك يا صديقي الاعرج .. ولو كنا نشك — ادنى شك — في انه حمار لما صرعناه ..

ومال على عزوز اكثر من قبل ، ثم اسر في اذنه بقوله انـه ليس — هو — الذي اطلق الرصاص على الحمار .. واخرج علبة سجائره ، ليقـدم سيجارة لعـزوز ، فرفض الاخير .. بل جذب السيجارة من فم الجندي ، وسحقها متعمدا ، ثم كرر تحذيره للجندي الذي هتف في حنق انه يتحرق شوقا لتدخين سيجارة .. في الهواء الطلق .. ويملأ رئتيه من نسمات الصباح التي حرم منها مع انه يعيش فيها ..

وحلق بخياله المضطرب ، الذي يعتقد انه لولا تحذيرات عزوز له لكان قد تحول الموقع بما فيه الى جحيم في لحظات ، ولما عب من هواء الصبح الخالص ملء رئتيه ، بل ولما شعر بالطمأنينة في صحبة عزوز .. تلك



بقلم محمد حسين عبد المجيد

الطمأنينة التي جعلته يستند الى الجدار ويحلق بخياله ، متخلصا بنفسه من تلك الثغرة التي القت به في مصيدة تضيق من حوله وتخنق انفاسه ..

* * *

وتنفس الصعداء وهو يرتمي في احضان امه ، ثم اهاب بها ان تهم معه للرحيل ...

— اماه .. اننـا نشبه النازي تماما .. لقـد ترملت النسـاء .. واظنك لست على استعداد لفقدان ابنك ، بعدما فقدت زوجك ...



وجعل يهزها محفزا ، وهو يتلفت من حوله خوفا من ان يمسكوا به ، ويعيدوه الى المصيدة الفار منها .. بل صاح فيها محذرا بأنه ما عاد اليها الا بمعجزة وانه لو رجع الى ذلك الشرك لـن يفلت منـه في المرة القادمة ...

* * *

وانطلقت عدة رصاصات لا تبعد كثيرا منهم ، فسقط منـه مدفعه ، وهو ينبطح على الارض بينما ظل عزوز واقفا ، وهو يبتسم ساخرا سخرية جعلت الجندي الاسرائيلي ينهض في تراخ ، ويبتلع جرعات من الطمأنينة التي وجدها بجانب عزوز .. بـل اصبح ذلك الجندي يعتقد في ان سلامة الموقع مرهونة بوجود عزوز نفسه .. وليس هو وحده الذي يعتقد ذلك ، بل كل من بالموقع .. وهذا ما حدا بالجندي الى قوله بانه لـم يشعر بالامان طوال الليل حتى كاد ينادي على عزوز ، فابتسم الاخير في بلـه مقصود جعل الجندي يقول :

— الا تصدق ؟ .. الم تر الدليل في عدم اطلاق الرصاص عليك ، وانت شاهـر مديتـك حينمـا اندفعـت نحونا .. ؟

— لم ار في عدم قتلك لي الا ابقاءا على حياتك .. ؟ في عدم قتلك لي لحظة من الراحة .. لحظة مـن الطمأنينة التي افتقدتها طوال الليل ، بل تفتقدها منذ عبورك الثغرة .. وانك لتنعم بها الآن .. لحظة تساوي الدنيا بما فيها ..

وظل يصفعه بتعريته — له — تعرية جعلته يقول في تخاذل :

— يستوي عنـدي استبطانـك مكنون نفسي ... او ..

وعاجله عزوز : قبـل ان يكمل جملته بقوله :

— لانك اصبحت كورقة في مهب

الربح ، كل ما يهمك ان تستقر . وتهدأ نفسا .. كل ما يهمك لحظة من العمر تجدها — حتى — في كنف عدوك ..

— صدقني اني لا اضمر لك في نفسي شيئا ..

وازدرد ريقه المر ، ثم اعتب متداعيا ، متخاذل النفس ان عزوز يحدثه ، وكأنه هو الملام .. وحدق فيه قائلا ان خطيئته جبلية .. وغامت عيناه ، وهو يقول :

— ولو اسفر الصبح ، ونحن على قيد الحياة لاريكنها ، انها لا تطمع في اكثر مما اطمع فيه : بيت صغير تحيط به حديقة متواضعة .. آه .. كانت لي آمال اصبح من الصعب تحقيقها .. ولكن ..

ودوت رصاصة ، مرقت في ضباب الفجر ، فاستقرت في صدر جندي ارعن كان يخرج من برج دبابته .. تلك الرصاصة جعلت عزوز يهتف بصوت روع من — هم — حوله :

— رصاصة مصرية ..

— ارايت .. ؟ انه الجندي الذي قتل حمارك .. وكأن السماء قد اقتصت للحيوان ..

هتف الجندي الاسرائيلي بذلك : ورأسه يغوص بين كتفيه ، بينما صاح قائد الموقع مبكتا ، فلقد طالما حذر جنوده من التواني في الحرص ، ثم اضاف انه لا يدري كيف اصابهم العمى واصبحوا غير قادرين على التمييز ما بين الانسان والحيوان .. فلقد نالت من امهر الرماة في فصيلته — رصاصة مصرية ، واصابت منه مقتلا ...

والتفت الضابط الشاب الى عزوز ، وقال في لهجة الغضب المشوب بالخوف : الخوف من رصاصة — مصرية — تأتيه بغتة من حيث لا يدري :

— لقد اسفر الصبح وعليك بالرحيل ايها الشاب ..

فرد عزوز متذرعا : فكيف يرحل بزوجته المريضة ، وقد صرعوا حماره الذي كان سيحملها عليه .. ؟ ولا بد من احضار دابة باي وسيلة ... فصاح فيه الضابط في عصبية منشاها الخوف ، واهاب به ان ينصرف ، فلقد اصبح وجوده وبال عليهم ... وشد الضابط على مدفعه بقبضة مرتعشة ، وتأوه ، متمنيا لو يطلق رصاصة على عزوز ، فيقتله دونما يلقى ردا قاتلا من حيث لا يدري .. ولما راى عزوز انه ما زال واقفا ،



محمد حسين عبد المجيد

صاح فيه محتدا .. فانطلق عزوز من فوره حيث يربض رفاقه الفهود ، بعد ما اطمأن الضابط الى ان عزوز لن يستطيع المغامرة بعمل شيء ، وزوجه بمثابة رهينة لديهم : الى ان يعود فيرحل بها ..

وهنالك اطلع عزوز رفاقه على خطة القضاء على تلك الطغمة .. الخطة التي تدبرها وهو في الطريق اليهم ، ذلك بعد ما تذكر ماسورة الري الممتدة بجانب الدار حتى نهاية الارض ... والتي كانت موضوعة لتغذية الارض الجديدة ، بعد تمهيدها في الجبل .. وهذه الماسورة من الممكن ان تخفي بالزاحف داخلها الى مربض العدو ، دونما يتعرض للالغام والشراك التي يتحصن بها العدو ... ولكن لم يخب عزوز في احتماله ما اذا كانت الماسورة المطمورة مفتوحة من نهايتها ام انها مسدودة بالرمال ، والطين والعشب المتشابك .. بل لم يعبأ بذلك القط ...

في حين بدأ افراد العدو في الغوص في خنادقهم ، متخفين كما لو كانوا سلاحف تخفي اطرافها داخل اصدافها عندما تحس بالخطر يحدق بها .. وما فعلوا ذلك الا عندما تناهى اليهم صوت انفجار تلاه دخان كثيف ..

وحملقت العيون من مرابضها ، وارتعدت الاطراف الممسكة بالمدافع ... واختلجت الشفاه ...

— اعتقد انه لو لم يكن ذلك الاعرج ، وزوجه معنا لما ابقى المصريون علينا حتى الآن ..

خاطب الجندي — الاكثر توددا لعزوز — نفسه بذلك ، واشرأب برأسه ، فوقع بصره على عزوز المقبل بدابته ، فواصل مخاطبته لنفسه ، وقد اقشعر بدنه .. فقد تراءت له نيران الموقع الذي حدث به الانفجار ، وقد اخذت تئز آكلة من كانوا يظنون انهم في حصن منيع من نيران المصريين :

— سنرى الآن ما سيحدث لنا بمجرد رحيلك ايها الاعرج ... وتلك الرصاصة التي استقرت في صدر ذلك اللعين : ان دلت على شيء ، فانما تدل على اننا انكشفنا ومع انك نلت جزاء تهورك ...

* * *

وغابت عيناه .. فقد انسل خياله منه ، وولى هاربا لدن ما هم عزوز وزوجه بالرحيل ...

وما لبث ان حط الخيال الهارب

عام جديد

عام مضى واطل في ... آفاقنا عام جديد
وانا هنا ، في غرفتي ... في غربتي ، احيا وحيد
أجتر بقيا الذكريات ... لانني عنها بعيد
صور تمر بخاطري ... ولها فؤدي يستعيد
والشوق حين يهزني ... يا لوعة الشوق الشديد
كيف انقضى عامي ، ... وكيف سينقضي العام الوليد
بالحزن .. بالآهات .. ... بالحسرات .. بالصمت المديد
حتى م ابقى تائها ... في هذه الدنيا شريد
ويصدني عما أؤمل ... في الهوى دهر عنيد
انا لا اطيق تحملا ... لا . ليس اعصابي جديد
جاوزت في حبي مداه ، ... فما على حبي مزيد
اني ساحفظ ودها ... عنه فؤادي لا يحيد
أوحت أرق الشعر لي ... فاذا نظمت بها اجيد
ساظل اشدوها هائما ... بجمالها الحلو الفريد
متطلعا متشوقا ... ماذا سيحمل لي البريد
أيجيئني منها باخبار ... فابلغ ما اريد
ويسرني بحديثها ... فيكون ذلك يوم عيد
احبيتي اشهى المنى ... اهديك بالعام الجديد
وأصوغ من قلبي به ... عن حبنا احلى نشيد
وأشد فيه على يديك ... مؤملا عاما سعيد
وبان تظللك المنى ... والسعد،والعيش الرغيد
وبان يتم لنا اللقاء ... ويجمع الشمل البديد

احبيتي : لك اجمل الآمال ، والعمر المديد

بغداد — ص.ب ٢٢٠٣٨ محمد جواد الغبان

امام دار يكتنفها الحزن .. طرق الباب في اضطراب ، ولكن .. لا مجيب .. كان الباب غير موصد ، فدلف بخفة ، وهو غير مصدق انه عاد سالما ؛ بل هتف مناديا خطيبته لتأخذه بين احضانها قبل ان تخترمه رصاصة مصرية ... ولكن بدل ان تأخذه خطيبته بين ذراعيها وتتلقفه بقبلات محمومة ، الفاها بين ذراعي رجل آخر .. ومع ذلك صاح لائذا :

— خذيني ... خبئيني ...
ولكن لا مجيب ..

* * *

فارتد مذعورا ... والتفت حيث الاعرج الذي ما ان غادر داره ، واصبح على قيد خطوات من سفح الجبل حتى اشرقت الشمس ... فعز على الجندي الاسرائيلي ان يرى عزوز ينفلت حيث الضوء ، والشمس المشرقة ؛ بل حز في نفسه ان يتركه لينعم بالحياة — هو — وزوجه ... وكان ذلك انعكاسا لما رآه — بعين خياله المهيض — من خيانة خطيبته له ، وتخليها عنه ... فصوب مدفعه الرشاش حيث الهدف الذي استهدفه بحقده الاسود ، وهو يعلم انه سيتلقى ردا قاتلا برصاصة مصرية ...

القاهرة محمد حسين عبد المجيد